ابنُ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما

مؤسّسُ علوم العربيّة

بقلم
أ. د. عبد الكريم بكّار

ينبغي أن يُحسَن الظنُّ بابن عبّاس فيقال: إنه أعلم بلغة القوم من كثير من علمائهم

ابن جني

دار الأعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن عباس رضي الله عنهما
مؤسس علوم العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار الأعلام

الأردن - عمّان - العبدلي - مركز جوهرة القدس - الطابق ٢ مكتب ٦٠٥
هاتف ٤٦٥٧٤٦٨ - ٠٦ . فاكس ٤٦٥٧٤٦٩ - ٠٦ . خلوي ٥٦٥٢٨٠٤ - ٧٩ - ٠٠٩٦٢
ص.ب ٩٢٧٥٦٣ عمّان ١١١٩٠ الأردن
E-MAIL : AL_AALAM@YAHOO.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله أهل الحمد كله، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم إمام الهدى ونبيّ الرحمة نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن محاولة الوقوف على بدايات العلوم أمر مهم لإدراك مراحل تطورها، حيث إن التشكيل الأول لكل فن من الفنون يتحكم في كثير من الأحيان في ماهية أطواره التالية، وهذا ما لمسناه بصورة واضحة بعد استعراضنا لما أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما في فنون العربية، حيث صار كثير من أقواله يشكل مساراً أو اتجاهاً لكثير ممن جاء بعده. ولعل مما يهدي في هذا الأمر قول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[1].

ونظراً لكون الكتاب العزيز المحور الذي قامت حوله الدراسات الإسلامية واللغوية، فإن التعرف على الدراسات التفسيرية الأولى أمر جوهري في طريق معرفة نشأة الدراسات اللغوية.

وابن عباس رضي الله عنهما أجدر الصحب الكرام بلقب مفسّر، ومن ثَمَّ فإن التعرف على ما أُثر عنه في هذا الباب مهم وضروري للباحث.

(١) سورة العنكبوت، آية ٢٠.

ولم أجد في المكتبة العربية من المصنفات ما يركز على هذا الجانب[١] من ثقافة حبر الأمة، مما دفعني إلى محاولة سد هذه الثغرة وفاءً لترجمان القرآن، وخطوة في طريق معرفة نشأة العلوم اللغوية.

وأكبر عقبة تواجه الباحث في تراث ابن عباس الروايات الكثيرة الواردة عنه في المسألة الواحدة، مما يجعل الباحث في حيرة من أمره حين يحاول الاعتداد برواية من الروايات على أنها الممثل لرأي ابن عباس. وقد حاولت أن أسدّد وأقارب وأختار من الروايات ما أشم منه القرب من منهج ابن عباس العامِّ، وما أحسبه أكثر انسجاماً مع المعارف والأحوال الثقافية التي كانت سائدة في زمانه.

ومما هو جدير بالذكر أنني لم أعقد هذا الكتاب لاستقصاء ما ورد عن ابن عباس في الفنون اللغوية، وإنما أحببت أن أوضح أثره الجمَّ في نشأة تلك العلوم.

والله َأسأل أن يجعل هذا العمل سهماً في خدمة لغة الذكر الحكيم، إنه أهل التقوى وأهل المغفرة، وهو حسبي ونعم الوكيل.

أ.د. عبد الكريم بكار

أبها في التاسع عشر من رمضان المبارك عام ١٤١٠هـ

(١) مما وقفت عليه في هذا كتاب «عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن» لأستاذنا د. مصطفى الخن، و«حبر الأمة عبد الله بن عباس ومدرسته في التفسير» لصديقنا د. عبدالله السلقيني. وقد تناولا جوانب حياته المختلفة وكان حظ الجانب اللغوي فيهما محدوداً، وقد أفدت منهما في بعض ما كتبت.

حياة ابن عباس

اسمه ونسبه:

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم النبيّ ﷺ، فنسبه ينتهي إلى ما انتهى إليه نسب النبيّ ﷺ وهو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فهو سليل أبي الأنبياء، وأثير بيت النبوَّة.

ووالده: العباس بن عبد المطلب أبو الفضل الصحابي الجليل، ولد قبل رسول الله ﷺ بسنتين، وكان سيداً في قومه، وكانت إليه في الجاهلية السقاية والعمارة (وهي ألا يَدَعَ أحداً يسبُّ أحداً في المسجد، ولا يقول فيه هجراً)، وكان من الرجال القلائل الذين ثبتوا يوم حنين. وقد كُفَّ بصره في آخر عمره. وكان موضع إجلال وتقدير فقد استسقى به عمر في خلافته يوم أصابهم القحط، وكان يترجَّل عمر إذا رآه، وكذلك عثمان رضي الله عنهم جميعاً. وقد بارك الله في ذريَّته فكان عدد أولاده عام ٢٠٠هـ ثلاثة وثلاثين ألفاً. وكان عمر يقول لابن عباس: أعرف فيك مشابهة في أبيك في رأيه وعقله. وقد ذكر الكلبيُّ أن قريشاً تعدُّ أهل الجزالة في الرأي العباسَ بن عبد المطلب وأبا سفيان بن حرب وابنيهما وأميَّة بن خلف. وقد توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة اثنتين وثلاثين في المدينة عن ثمان وثمانين سنة[1].

(١) انظر في ترجمته: الإصابة ٢: ٢٦٣، والبداية والنهاية ٧: ١٦٨، والبيان والتبيين ١: ٣١٦، ٢: ٢٦٩.

وأمه هي أم الفضل لُبابة بنت الحارث بن حزن بن بجير الهلالية، من هلال بن عامر[١].

ولادته:

جرى خلاف قريب في ودلاته، ففي «مسند أحمد» عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: توفي النبي ﷺ وأنا ابن عشر سنين[٢]. وذكر البسويُّ نحواً من ذلك[٣].

وهاتان الروايتان تدلان على أنه ولد عام الهجرة، وتذكر بعض الروايات أن ابن عباس كان له من العمر عند وفاة رسول الله ﷺ خمس عشرة سنة[٤].

ولكن أكثر الرواة على أنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وبنو هاشم محصورون في الشِّعب قبل خروجهم منه بقليل. وقد رجَّح الواقديُّ ذلك، وقال: إنه لا خلاف في ولادته في الشعب. وهذا ما رجحه ابن حجر، ولم يذكر الخطيب البغداديُّ غيره[٥].

نشأته:

إن للمحيط الذي ينشأ فيه المرء الأثر الأعظم في تشكيل عقله ونفسه وسلوكه على نحو معين، وقد نشأ ابن عباس بين أبوين كريمين، وقد كان أبوه ممن أسلم سراً في وقت مبكر، ولكنه كان مُخفياً إسلامه لمصلحة تعود

(١) انظر في ترجمتها سير أعلام النبلاء ٣ : ٣٣٣.
(٢) المسند ١ : ٢٥٣.
(٣) المعرفة والتاريخ ١ : ٢٤١.
(٤) انظر سير أعلام النبلاء ٣ : ٣٣٦، والإصابة ٢ : ٣٢٢.
(٥) انظر السير ٣ : ٣٣٦، والإصابة ٢ : ٣٢٢، وتاريخ بغداد ١ : ١٧٣.

على المسلمين. وكان إسلام عبد الله أيضاً مبكراً ـ على تجوز في التعبير ـ إذ لا يبعد أنه أسلم وهو في السابعة من عمره عند بداية التمييز فقد صح عنه أنه تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ﴾[1] وقال: كنت أنا وأمي من المستضعَفين في الأرض، ويقول: كنت أنا وأمي ممن عَذَرَ الله[2].

وقد هاجر ابن عباس مع أبيه رضي الله عنهما، وصادفا رسول الله ﷺ في الجحفة في مسيره إلى مكة ليفتحها سنة ثمان[3].

ومن ذلك اليوم صار ابن عباس يعيش مع الجيل الأكرم الأول في المهاجَر الكريم مغموراً بعطف النبي ﷺ، حيث كان يدخل عليه دون استئذان لكونه ﷺ زوج خالته ميمونة بنت الحارث الهلالية.

الرجل المبارك:

نال ابن عباس من الفضل والكرامة ما لم ينله غيره، فقد ذكر ابن كثير وغيره عن مجاهد عن ابن عباس، قال: لما كان الرسول ﷺ في الشِّعب جاء أبي إليه، فقال: يا محمد، أرى أم الفضل قد اشتملت على حمل.

فقال: «لعل الله أن يقرَّ أعينكم» قالَ: فلما ولدتني أتى بي رسولَ الله ﷺ وأنا في خرقة فحنَّكني بريقه. قال مجاهد: فلا نعلم أحداً حنَّكه رسول الله ﷺ بريقه غيره[4].

---

(١) سورة النساء، آية ٧٥.

(٢) أخرج البخاري القولين في صحيحه ٦: ٩٢، ٩٣. وانظر أسد الغابة ٣: ١٣٩.

(٣) الرحيق المختوم: ٤٤٨.

(٤) البداية والنهاية ٨: ٢٩٨.

وقد دعا له رسول الله ﷺ في مناسبات عِدَّة، فعن ابن عمر: أن عمر دعا ابن عباس، فقرَّبه، وكان يقول: إني رأيت رسول الله ﷺ دعاك يوماً فمسح رأسك، وتفل في فيكَ، وقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[١]. ودعا له رسول الله في موضع آخر أن يزيده علماً وفهماً[٢].

وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ، فكان ابن عباس بحر علم ومشكاة فهم.

أولاده:

لابن عباس عدد من الأولاد: العباس، وهو أكبرهم، وبه يكنى، وعلي وهو أصغرهم، وهو أبو الخلفاء العباسيين، والفضل ومحمد وعبيد الله ولبابة وأسماء[٣].

خصائصه النفسية والعقلية:

لقد قسم الله مننه على الناس، فأعطى بعضهم ما حجبه عن آخرين، فإذا اجتمع في الرجل ما تفرّق في غيره انتزع الإعجاب والثناء، وهذا ما كان عليه ابن عباس، فقد أكرمه الله ـ تعالى ـ بعلو النسب وكرم الأَرُومة، ونشَّأه في بيت مبارك رفيع العماد كثير الخير، وأتاح له بقرابته من رسول الله ﷺ وخالته ميمونة من مخالطة النبي ما لم يتح لغيره، مما جعل هذه النبتة الكريمة تشرب من ماء لا يقلُّ طيباً عن منبتها!

---

(١) السير ٣: ٣٣٧، وأنساب الأشراف ٣: ٣٧. ومسند أحمد: ١: ٢٦٦.

(٢) الحلية: ١: ٣١٥.

(٣) السير ٣: ٣٣٦، والإصابة ٢: ٣٢٢، وتاريخ بغداد ١: ١٧٣.

أدبه الجمّ:

كان ابن عباس صاحب أدب جمّ رفيع يجعله يعرف قدر من يخالط، ويحفظ لكل ذي حرمة حرمته، ومن ذلك ما ذكره عن نفسه قال: صليت خلف رسول الله ﷺ من آخر الليل، فجعلني حذاءه فلما انصرفت قلت: وينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله؟! فدعا لي أن يزيدني فهماً وعلماً[١].

وهذا الإحساس المرهف والخلق الرفيع لم يكن مع النبي ﷺ وحده، وإنما هو سجية لا تفارقه، لا سيما مع علماء الأمة وسادتها، فقد ذكر ابن سعد عن ابن عباس أنه قال: «فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل (أي: في وقت القيلولة)، فأتوسَّد ردائي على بابه تسفي الريح عليَّ التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عمّ رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث»[٢]. إنه التقدير الصحيح للعلم وأهله، وقد يكون ابن عباس أعلم من كثير ممن يسألهم من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكنه الإحساس العميق بفضل العلم وحرمة أهله.

ولابن عباس في خلوته آداب لا يعرفها كثير من الناس، فقد كان رضوان الله عليه لا يدخل الحمام إلا وحده وعليه ثوب صفيق، ويقول: إني أستحيي من الله أن يراني في الحمام متجرداً[٣].

---

(١) السير ٣: ٣٣٨.

(٢) الطبقات الكبرى ٢: ٣٦٧، ٣٦٨.

(٣) السير ٣: ٣٥٥.

جوده وكرمه:

كان العباس يتولى سقاية الحاج وعمارة البيت في الجاهلية، وكان من أثرياء قريش، وقد هيأ هذا لابن عباس أن ينشأ في بيت نعمة، فعاش عمره جواداً باذلاً ليس في ذاكرته شيء من أيام قلّة أو عوز، وقد قال مجاهد: كان ابن عباس أمدَّهم قامة وأعظمهم جفنةً[١] وأوسعهم علماً[٢].

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت مجلساً أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس: الحلال والحرام، وتفسير القرآن، والعربية والشعر، والطعام[٣].

وذكر البلاذري: أن سائلاً جاء ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: ألست مسلماً تصلي وتصوم؟ فقال: نعم، فقال: إن مواساتك لواجبة، ونزع ثوبه فألقاه عليه[٤].

وذكر الذهبي: أن أبا أيوب الأنصاري أتى معاوية، فشكا دَيناً، فلم يرَ منه ما يحب، فقدم البصرة، فنزل على ابن عباس، ففرَّغ له بيته، وقال: لأصنعنَّ بك كما صنعتَ برسول الله ﷺ ـ أي عند نزوله في المدينة مهاجراً ـ ثم قال: كم دَينك؟ قال: عشرون ألفاً. فأعطاه أربعين ألفاً وعشرين مملوكاً وكل ما في البيت!![٥] وهذا غاية الكرم الممزوج بغاية الوفاء، حيث قابل صنيع أبي أيوب برسول الله ﷺ بمثله، حيث بذل أقصى جهده في إكرامه كما بذل أبو أيوب أقصى جهده.

---

(١) كناية عن الكرم.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٣٠٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣: ٣٥٢. وانظر أيضاً الحلية: ١: ٣٢١. ومعنى «الحلال...» إلخ أي: معرفة الحلال والحرام... إلخ.

(٤) أنساب الأشرف ٣: ٤٧.

(٥) السابق...

عبادته:

كان ابن عباس من أولى الناس بكثرة العبادة والإعراض عن الدنيا، فتربيته الأولى بصحبة النبي ﷺ وعلمه الغزير وعقله الراجح، كل أولئك يقضي بأن يكون ابن عباس على الحالة التي كان عليها. قال ابن أبي مليكة: صحبت ابن عباس من المدينة إلى مكة، وكان يصلي ركعتين، فإذا نزل قام شطر الليل، ويرتل القرآن حرفاً حرفاً، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب، ويقرأ: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾(١).

وقال شعيب بن درهم: كان مجرى الدموع من خدي ابن عباس مثل الشراك البالي من كثرة البكاء(٢).

وذكر سعيد بن أبي سعيد أنه كان عند ابن عباس، فجاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، كيف صومك؟ قال: صوم الاثنين والخميس. قال: ولم؟ قال: لأن الأعمال تُرفع فيهما، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم(٣).

وقال طاوس: ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لحرمات الله من ابن عباس، والله لو أشاء إذا ذكَرته أن أبكي لبكيت(٤).

ويعرف مع هذا عن ابن عباس ميله إلى الترخص في الفتوى، وهذا من فقهه ـ رضي الله عنه ـ فإن العالم يأخذ بالعزائم لذات نفسه، ويسهل على المسلمين في الفتوى دفعاً للحرج عنهم.

---

(١) سورة ق: آية ١٩.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٣٠٦.

(٣) السير: ٣: ٣٥٢.

(٤) الحلية ١: ٣٢٩.

حبه الخير للناس:

لا تضيق الدنيا ولا تضيق أرزاقها، ولكن نفوس الناس هي التي تضيق، وقد أخبر الصادق المصدوق أن إيمان المرء لا يكمل إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه. ومن هنا فقد قال عبد الله بن بريدة: إن رجلاً شتم عبدالله بن عباس فقال: إنك لتشتمني وفيَّ ثلاث: إني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه، فأحبه، ولعلِّي لا أقاضي إليه أبداً، وإني لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلاد المسلمين، فأفرح به، وما لي بها من سائمة ولا راعية، وإني لآتي على آية من كتاب الله، فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم[١]. وما أحوج الناس إلى هذا الخلق الكريم في أيامنا هذه حيث طغت الفردية وتراجع الحسُّ الجماعي!

حكمته ورأيه الجزل:

أسلفنا أن قريشاً كانت تعدُّ العباس بن عبد المطلب من أهل الرأي السديد فيها، وقد ورث ابن عباس عن أبيه الرأي الجزل الذي ينمُّ عن استعداد عالٍ وخبرة واسعة. وقد أبدى ابن عباس رأيه في عدد من الملمَّات المدلهمَّة والقضايا الشائكة، وقد أثبتت الأيام صحة رأيه ونفاذ نظره، وكأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ـ كما نعته بذلك علي ـ ولا عجب في هذا، فإن الفتنة إذا أدبرت عرفها العالم والجاهل، ولكن إذا أقبلت لم يعرفها إلا العالم، فإذا انضم إلى ذلك بركة دعاء النبي ﷺ له بأن يعلمه الله الحكمة[٢]، فأجدر به أن يكون مشكاة فهم وتبصُّر!!

---

(١) الإصابة ٢ : ٣٢٥.

(٢) الحلية ١ : ٣١٥.

وقد كان للعباس أثر بالغ في إرشاد ولده إلى مقاطع الرشد وتكوين العقلية الفذة، فقد ذكر الشعبيُّ أن العباس قال لابنه عبد الله: أي بني، إني أرى أمير المؤمنين ـ أي عمر ـ يدعوك ويقربك، ويستشيرك مع أصحاب رسول الله ﷺ، فاحفظ عني ثلاث خصال: اتق الله لا يجربنَّ عليك كذبة، ولا تفش له سراً، ولا تغتابنَّ عنده أحداً. فقال الشعبي: فقلت لابن عباس: كل واحدة خير من ألف. فقال ابن عباس: كل واحدة خير من عشرة آلاف(١).

وفي عهد عمر رضي الله عنه اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، واحتاج الخليفة الفاروق إلى الكثير من الاجتهاد والرأي والشورى التي تغطي المتغيرات والمستجدات، وتوجد حلولاً للمشكلات، وقد وجد عمر في ابن عباس خير معين على بلوغ ما يريد، فكان إذا أعضلت عليه قضية دعا ابن عباس، وقال: أنت لها ولأمثالها، ثم يأخذ بقوله ولا يدعو لذلك أحداً. وقد كتب يعلى بن أمية من اليمن إلى عمر يسأله عن مسألة، فأجابه عليها ابن عباس، فامتلأت نفس عمر إعجاباً مما سمع، وقال له: أشهد أنك تنطق من بيت نبوَّة!!(٢) ويبدو أن عمر اعتمد عليه اعتماداً كبيراً في هذا الشأن، فقد مرض ابن عباس ذات يوم، فدخل عليه عمر يعوده، ويقول: لقد أخلَّ بنا مرضك، والله المستعان!(٣)

ومن المواطن التي يظهر فيها سداد الرأي وقوة الملاحظة تقويمُ الرجال، وإبراز خصائصهم، وقد سأل عيسى بن طلحة ابن عباس عن

---

(١) السابق ١ : ٣١٨، والكامل للمبرد ١ : ٣٤٤.

(٢) أسد الغابة: ٣ : ١٩٣، والبداية والنهاية ٨ : ٣٠٣.

(٣) طبقات ابن سعد ٢ : ٣٧١.

الخلفاء الراشدين الأربعة رضوان الله عليهم، فقال : أخبرني عن أبي بكر. قال: كان خيراً كله على الحدَّة وشدة الغضب! قال: قلت: أخبرني عن عمر. قال: كان كالطائر الحذر، قد علم أنه قد نُصب له في كل وجه حِبالة، وكان يعمل لكل يوم بما فيه على عنف السياق. قال: قلت: أخبرني عن عثمان. قال: كان والله صواماً قواماً لم يخدعه نومه عن يقظته. قال: قلت: فصاحبكم - يعني علياً - قال: كان والله مملوءاً علماً وحلماً، غرَّته سابقته وقرابته، وكان يرى أنه لا يطلب شيئاً إلا قدر عليه. قلت: أكنتم ترونه مجدوداً؟ قال: أنتم تقولون ذاك[١].

ومن خبرته بالرجال أنه حين دبَّ الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، ورأى علي عزل معاوية عن الشام. نصح علياً بأن يُبقي معاوية على الشام والياً، ولا يعزله عنها في بادىء الأمر، حتى قال له فيما قال: إن أحببت عزله فولِّه شهراً، واعزله دهراً. فأبى علي - رضي الله عنه - إلا عزله[٢].

وحين تراضى علي ومعاوية على التحكيم بينهما كان رأي ابن عباس أن يكون هو الحكم من جهة علي، ليكون مكافئاً لعمرو بن العاص الذي كان من جهة معاوية - رضي الله عنهم جميعاً - ولكن أهل اليمن ومذحجاً أبوا إلا أن يكون الحكم أبا موسى الأشعري. وقد كان من أمر الحكمين ما كان[٣].

وحين أراد الحسين - رضي الله عنه - المسير إلى الكوفة نصحه ابن عباس بعدم الذهاب، فلما رأى إصراره على ذلك عانقه ابن عباس وهو يقول: أستودعك الله من مقتول!!

(١) البيان والتبيين ٣: ٢٢٨، ٢٢٩.
(٢) البداية والنهاية ٨: ٣٠٢.
(٣) السير ٣: ٣٤٩، ٣٥٠.

وقد أنقذ الله بحسن رأيه ورجاحة عقله كثيراً من الخوارج الحَرُورية من الضلالة، فقد ذهب إليهم وناظرهم حتى ألزمهم الحجة، فعاد منهم إلى حظيرة الجماعة عشرون ألفاً، وبقي زهاء أربعة آلاف. ولولا طول أخبار ذلك لأثبتناه هنا، لترى عقلية فذة نادرة تسلحت بعلم الكتاب، ونهلت من ينابيع النبوة الفياضة[١].

فصاحة لسانه:

حضور البديهة وسداد الرأي وغزارة العلم وسَعَة التجربة، كل أولئك منبتة للسان فصيح يملأ الأسماع ويسبي العقول، ويفحم الخصوم إلا أن يشاء الله تعالى شيئاً.

وقد كان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ خطيباً لا يبارى، ومناظراً لا تنقطع له حجة، وواعظاً تجيش من درره القلوب، وتدمع العيون، قال الجاحظ: «ومن الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون عبد الله بن عباس، قالوا: خطبنا بمكة ـ وعثمان رضي الله عنه محاصر ـ خطبة لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا. وروي عن أبي وائل أنه قال: خطبنا ابن عباس وهو على الموسم ـ أي الحج ـ فافتتح سورة النور، فجعل يقرأ، ويفسر، فجعلت أقول: ما رأيت وسمعت كلام رجل مثله، ولو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت»[٢].

ونظر عمر إلى ابن عباس وهو يتكلم فقال: «شِنشِنة أعرفها من أخزم»[٣].

(١) انظر الحلية ١: ٣١٨، ٣١٩، والكامل للمبرد ٣: ١٠٧٩.

(٢) البيان والتبيين ١: ٣١٦.

(٣) السابق ١: ٣١٧، والسير ٣: ٣٥١.

وقال الحسن البصري: كان عبد الله أول من عرَّف[(١)] بالبصرة، صعد المنبر، فقرأ البقرة وآل عمران، ففسرهما حرفاً حرفاً، وكان والله مِثَجّاً يسيل غَرْباً[(٢)].

وقال مسروق: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا نطق قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث قلت: أعلم الناس[(٣)].

وقال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ مثنياً على فصاحة ابن عباس:

إذا ما ابن عباس بدا لك وجهُهُ ... رأيت له في كلِّ أحواله فضلا
إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ ... بمنتظمات لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوس فلم يَدَعْ ... لذي إربة في القول جداً ولا هزلا[(٤)]

نظره البعيد:

كان لابن عباس نظره الثاقب ـ كما أسلفنا ـ وكان له إلى جوار ذلك رؤية واضحة للمستقبل، اعتباراً بما مضى من أيام الناس ـ وهو الخبير بها ـ واهتداءً بسنن الله في الكون في تحول الأمور وتداول الأيام والليالي. وهذا النظر البعيد كان على ما يبدو بارزاً عنده منذ نعومة أظفاره، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلمَّ فلنسأل أصحاب رسول الله فإنهم اليوم كثير. قال: فقال: واعجباً لك

---

(١) التعريف: جمع الناس في المسجد يوم عرفة ووعظهم موافقة للحُجاج في عرفة، وقد اختلف العلماء في ذلك، فمنهم من أجازه ومنهم من قال: هو بدعة.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٣٠٤. قال في النهاية ٣: ٣٥١: الغرب: أحد الغروب وهي الدموع حين تجري، يقال: بعينه غرب: إذا سال دمعها ولم ينقطع، فشبه به غزارة علمه وأنه لا ينقطع مدده وجريه.

(٣) البداية والنهاية ٨: ٣٠٥.

(٤) الاستيعاب ٢: ٣٤٦.

يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟! قال: فتركت ذلك، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح عليَّ التراب، فيخرج فيراني، فيقول لي: يا ابن عم رسول الله، ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك؟! فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث. فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي ليسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني»[١].

لقد أدرك ابن عباس أن الصحابة سيرحل منهم عن المدينة فريق، وسيموت فريق، وأنه سيأتي على الناس زمان يحتاجون فيه إلى من عنده حديث رسول الله ﷺ، فبادر وهو في الثالثة عشرة من عمره عقب وفاة النبي ﷺ إلى طلب الحديث قبل فوات الأوان.

ويذكر الشاطبي أن عمر قال لابن عباس: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن، فقرأنا وعلمنا فيما نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن، ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا[٢].

وإشارة ابن عباس هذه ذات قيمة بالغة في علم دلالة الألفاظ، إذ إن آيات الكتاب حمّالة أوجُه، وأكثرها ظني الدلالة قابل للاجتهاد، ولا يقطع النزاع في فهمها شيء كمعرفة أسباب النزول التي تحدُّ من شيوع دلالة

---

(١) طبقات ابن سعد ٢: ٣٦٧.

(٢) الموافقات ٣: ٣٤٨.

اللفظ. وقد كان ما توقعه ابن عباس، وجرى بين أهل القبلة الواحدة من النزاع على كافة الصعد ما هو معلوم، ولطالما استدل الفريقان المتنازعان من أهل الملة بالآية الواحدة، كل يأخذ منها ما يناسب رأيه.

الثناء على علمه:

كان صغر السنّ ميزة لابن عباس في طلب العلم، إذ إن صغير السن أقدر على حفظ ما يسمع، كما أنه لا يجد غضاضة في أخذ العلم من أهله، كما أن ذلك أتاح له أن يعاصر أعداداً كبيرة من أصحاب رسول الله ﷺ نظراً لتأخر وفاته، حيث عاش أكثر من نصف قرن بعد وفاة النبي ﷺ، كما أتاح له ذلك أن يعاصر نموّ العقل العربي وتمرُّس العرب بشيء من مناهج البحث، مع نوع من التركيز المعرفي وتفتق أكمام المعرفة الأولى، وقد انعكس كل ذلك على ما خلَّفه لنا ابن عباس من علم.

وقد كان ابن عباس جادّاً في طلب العلم، عارفاً بتكاليف التصدي له، فعن عبيد الله بن علي عن جدته سلمى قالت: رأيت عبد الله بن عباس معه ألواح يكتب عليها عن أبي رافع شيئاً من فعل رسول الله ﷺ[(١)]. فهذا هو يكتب السُّنة الفعلية التي فاته الكثير منها لحداثة سنه، ولقصر الفترة التي صحب فيها النبي ﷺ، وحدَّث هو عن نفسه قائلاً: كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله، وما نزل من القرآن في ذلك، فجعلت أسأل أُبي بن كعب يوماً ـ وكان من الراسخين في العلم ـ عما نزل من القرآن بالمدينة، فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة وسائرها بمكة[(٢)].

(١) طبقات ابن سعد ٢: ٣٧١.
(٢) السابق...

وابن عباس من المتثبتين في أخذ العلم، فلا يطمئن إلى القول إلا بعد أَنَاة وتمحيص، فقد روى طاووس عن ابن عباس أنه كان يقول: إن كنتُ لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبيّ ﷺ[١].

أما أقوال الناس في علمه فهناك ما يَعسُر حصره وجمعه، حيث كان ابن عباس ملء السمع والبصر، يفتي الناس في علوم كثيرة. ولا بأس هنا بأن نسوق طرفاً مما قيل في علمه لتعرف أيَّ رجل في الناس كان ابنُ عباس! فعن سعيد بن جبير قال: قال عمر لابن عباس: لقد علمتَ علماً ما علمناه[٢]. وكان عمر رضي الله عنه يستشير ابن عباس في الأمر يدهمه، ويقول: غُصْ غواص[٣]. وحين كان يسمع عليٌّ تفسيره وآراءه السديدة كان يقول: كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق[٤].

ويقول فيه ابن مسعود: لنِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس، ولو أنه أدرك أسناننا ما عَشَرَه منا أحد[٥]. وروى عكرمة عن معاوية رضي الله عنه أنه قال له: مولاك والله أفقه من مات ومن عاش[٦]. وقال مجاهد: ما رأيت أحداً قطُّ مثل ابن عباس، لقد مات يوم مات وإنه لحبر هذه الأمة[٧]. وقال ليث ابن أبي سليم لطاوس: لِمَ لزمت هذا الغلام ـ يعني ابن عباس ـ، وتركت

---

(١) السير ٣: ٣٤٤.
(٢) السابق ٣: ٣٤٥.
(٣) السابق: ٣: ٣٤٤، وأنساب الأشراف ٣: ٣٢.
(٤) البرهان ١: ٨.
(٥) طبقات ابن سعد ٢: ٣٦٦. ومعنى ما عشره، أي: ما بلغ أحد منا عُشْرَ ما عنده.
(٦) السير ٣: ٣٤٨.
(٧) السابق ٣: ٣٥٠.

الأكابر من الصحابة؟! فقال: إني رأيت سبعين من الصحابة إذا تماروا في شيء صاروا إلى قوله[١].

أما في مجال علوم العربية فحسبك قول ابن جِنِّي: «ينبغي أن يُحسَن الظنُّ بابن عباس فيقال: إنه أعلم بلغة القوم من كثير من علمائهم»[٢].

وقد أتم الله على ابن عباس النعمة حين وهب له ذاكرة عجيبة زكاها عمر بن الخطاب حين قال المهاجرون له: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟ ـ أي لمجالسك ـ فأجابهم بقوله: ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سؤولاً وقلباً عقولاً[٣].

وتحدث هو عنها بقوله: ما سمعت شيئاً قط إلا وعيته، وإني لأسمع صوت النائحة فأسد أذني، كراهة أن أحفظ ما تقول[٤].

ومما يزيد النفس وثاقة بعلمه، أنه كان يرى من الواجب على العالم ألا يتحرج من الاعتراف بجهله في بعض المسائل، ويقول: إذا ترك العالم قول: (لا أدري) أصيبت مقاتله[٥]. وكان يصرح في كثير من الأحيان أنه لا يعلم كل شيء، فقد روى النحاس عنه أنه قال: (لا أدري ما «الأواه»، وما «غِسلين»)[٦].

ولا نريد الإطالة في هذا، فهذا الكتاب برمته براهين على رسوخ ابن عباس في العلم.

---

(١) البداية والنهاية ٨: ٣٠٤.

(٢) المحتسب ٢: ٣٤٢.

(٣) السير ٣: ٣٤٥.

(٤) لغة القرآن: ٤٢٥.

(٥) البيان والتبيين ١: ٣٧٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١: ٣١١.

صفته الجسمية:

جمع الله ـ تعالى ـ لابنِ عباس كرم المخبر وجمال المنظر، فقال واصفوه: إنه كان أبيض طويلاً مديد القامة، وكان أبوه العباس أطول منه، وجده عبد المطلب أطول من العباس. وكان يشوب بياضَه صفرةٌ، جسيماً وسيماً، وكان يخضب بالحناء. وكان رضي الله عنه يلبس النَفيس من الثياب، ولربما بلغ ثمن ثوبه ألف درهم، وكان ثوبه إلى نصف الساق. كما كان يكثِر من الطيب، وإذا مرَّ في الطريق تقول النساء: هذا ابن عباس أو رجلُ مسك. وروى رِشْدين بن كريب عن أبيه قال: رأيت ابن عباس يعتمُّ بعمامة سوداء، فيرخي شبراً بين كتفيه، وبين يديه(١).

وفاته:

اختلف أهل العلم في تاريخ انطفاء هذا السراج الوهاج، فذكر بعضهم أنه توفي سنة ثمان وستين، ورأى آخرون أنه توفي في سنة سبع وستين، ومنهم من ذهب إلى أن وفاته كانت سنة سبعين. والأول أرجحها.

وكما اختلفوا في سنة وفاته اختلفوا في مكانها، فمنهم من ذكر أنه توفي بمكة بعدما جاور فيها سنة، ودفن في مقابر المهاجرين، ومنهم من ذكر أنه توفي في الطائف، وصلى عليه محمد ابن الحنفية، وقبره بالطائف مشهور يزار. هذا هو الصحيح، والله أعلم.

وبعد:

فإننا لم نقصد إلى الإحاطة بخصائص حبر الأمة وبحر التأويل، فذاك

---

(١) انظر طبقات القراء ١:٤٢٦، والبداية والنهاية ٨:٣٠٩، والسير ٣:٣٥٥، والكامل للمبرد ١:١٢٤.

أكبر من أن يُختَزل في صفحات، ولكن أردنا من هذا أن يكون مدخلاً لما عقدنا سائر هذا الكتاب له، وهو بيان أثره في تأسيس العلوم اللغوية.

ونسأل الله إحساناً وتوفيقاً.

الرواية عن ابن عباس

من السائد المألوف ميل الناس إلى نسبة كثير من الأقوال والأحوال إلى من شهر بصفة معينة بقطع النظر عن صحة تلك الأقوال ووثاقة أسانيدها، كما فعلوا ذلك مع حاتم الطائي حيث نسبوا إليه أساطير الكرم، وكما فعلوا ذلك مع عنترة حين نسبوا إليه ضروب البسالة. وقد حصل نحو من ذلك لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حيث إن دعاء النبي ﷺ له بأن يعلمه الله التأويل، وتصدره له عملياً حين وجد حاجة الناس إلى ما لديه من علم بتفسير الكتاب العزيز- جعلا نسبة أي قول إليه في التفسير مقبولة في الأوساط العامة، حيث لا يستغرب الشيء من معدنه. وزاد الطين بِلَّة اندفاع غلاة الشيعة إلى رفع أقوال وحكايات إلى ابن عباس تؤيد مذهبهم. وأمر آخر، وهو التقرب إلى الخلفاء العباسيين بسَوْق أخبار ابن عباس وما يدل على نبوغه وتفرده بالعلم، وهذا كله دعا الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ إلى القول: إنه لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيهٌ بمئة حديث(١). ولا ينبغي الوقوف عند دلالة ظاهر هذا النص، إذ لم يكن مراد الإمام سوى الإشارة إلى كثرة المدسوس في هذا الباب، وإلا فإن الذي روي عن ابن عباس في الصحاح الوثيقة أكثر من ذلك بكثير، ودليل كثرة الصحيح عنه أن البخاري وابن حجر ذكرا مئات الروايات عن ابن عباس في التفسير.

ومن أجود الطرق عن ابن عباس ما رواه عنه علي بن أبي طلحة الهاشمي، قال أحمد بن حنبل: بمصر صحيفة في التفسير رواها ابن أبي طلحة، لو رحل رجلٌ فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً. قال ابن حجر:

---

(١) الإتقان ٢: ١٨٩.

وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس[١].

ومن جيد الطرق كذلك عن ابن عباس طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيراً ما يخرج منها الحاكم في «المستدرك»[٢].

ومن الطرق الجيدة الحسنة طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عنه ـ بالتردد بينهما ـ وقد أخرج من هذه الطريق لابن عباس كثيراً ابنُ جرير في «تفسيره» وابن أبي حاتم والطبراني في «معجمه الكبير».

ومن أوهى الطرق عن ابن عباس طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فإذا انضم إليها رواية محمد بن مروان الملقب بـ(السدّي الصغير) فهي سلسلة الكذب. لكن ذكر ابن عدي في «الكامل» للكلبي أحاديث صالحة، وخاصة عن أبي صالح.

ومن أوهى الطرق عن ابن عباس كذلك طريق مقاتل بن سليمان، إلا أن الكلبي يَفضُله لما عند مقاتل من المذاهب الرديئة[٣].

أما التفسير الذي جمعه الفيروزأبادي، وسماه (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) فإن فيه مناكير كثيرة، وأشياء صحيحة أيضاً كثيرة، ولكنه لا ينبغي أن يقبل إلا بعد تدقيق وتمحيص.

---

(١) السابق ٢ : ١٨٨.

(٢) السابق. . .

(٣) انظر السابق ٢ : ١٨٩، ومقدمة أسباب النزول للواحدي ٢٤-٢٦، وتاريخ بغداد ١٣ : ١٦٠، والمعارف: ٥٣٥، طبقات المفسرين للداودي ٢ : ١٤٩، وتهذيب الأسماء واللغات ٢ : ١١١.

وعلى كل حال، فإن ما جرت به العادة عند الأخباريين التساهل في أسانيد روايات المغازي والوقائع وأيام الناس، وكذلك ما يمس جانب اللغة حيث تكون هناك فراغات علمية لا يمكن سدها عن طريق الروايات الصحيحة الموثَّقة وحدها. ونحن في هذا البحث معنيون في المقام الأول بالروايات اللغوية، وهي وإن كان في بعضها نوع من التزيُّد أو الوضع، إلا أنها في أكثر الأمر قائمة على أسانيد حكم عليها علماء الجرح والتعديل، مما يمكِّن الباحث الفاحص من الحكم على تلك الروايات ووضعها في الموضع اللائق بها في الاحتجاج والاستدلال، على حين أن أكثر الأقوال اللغوية المروية عن اللغويين تفتقر إلى الأسانيد، وإذا عثر المرء على إسناد لبعضها كان الحكم على رجالاته غير متيسر ـ في أكثر الأمر ـ لعدم عناية السابقين بهم وبحثهم في أحوالهم.

ومهما كان من شيء فإن الثابت الصحيح عن ابن عباس كثير جداً، وهو كاف لتكوين صور واضحة إن لم تكن تامة عن ملكاته اللغوية والنظرات الثاقبة التي أرسلها في شتى الفنون اللغوية. وهذا البحث يَطمَح إلى رسمها بحول الله وطَوْله.

ابن عباس
والملاحظات اللغوية الأولى

جرت سُنَّة الله في الخلق أن يستغرق البناء الثقافي والاجتماعي وقتاً طويلاً، كما قضت سنته أن تتراكم جزئيات معرفية كثيرة على سبيل التدريج، لتشكل في إطار معيَّن فناً من الفنون، أو جانباً متميزاً من جوانب المعرفة. ويَهَبُ الله لكل فن بين الفَيْنة والفَيْنة من يقفز بذلك الفن قفزات واسعة تبرز قَسَماته، وتوضح معالمه، وتنقله من طور إلى طور، ومن ثَمَّ فإن أنظار العلماء والباحثين تتفاوت في تقويم بدايات الفنون، والمراحل التي تقلبت فيها، على مقدار إدراك كل واحد منهم لتلك البدايات والأطوار، ووَفْق المعايير والخلفيات الثقافية التي يمتلكونها.

ونحن إذ نزعم أن ابن عباس كانت له اليد الطولى في تأسيس العلوم اللغوية، لا نقصد أنه بدأ من فراغ، واستحوذ على مرحلة التأسيس، وترك لغيره التطوير والتفصيل، وإنما نريد من وراء هذا أنه إذا كان لا بد من بداية للنشاط اللغوي بفروعه المختلفة، فلتكن البداية عند ابن عباس، إذ إن أثره في تهيئة المناخ العام لاستنبات المعارف اللغوية عند العرب أكبر من أن يُتجاهل أو يتجاوز. والذي جعلنا ننسب إلى ابن عباس ما نسبناه إليه في عنوان هذا البحث، هو النصوص الكثيرة التي أسلمتنا إلى الاعتقاد بوجود تفكير لغوي منظم استكمل كثيراً من أدواته واتسع الكثير من دوائره، فقد حرَّر القرآن الكريم الطاقات الكامنة في العقلية العربية، وأزال عنها الكثير من الغبش الذي كان يحجبها عن الرؤية الصحيحة للكون والحياة

والإنسان، وأخذ الناس يتفاعلون مع أُطُر الدين الجديد، ويُعيدون تمحور ثقافتهم حول دستوره الخالد، فكان من البَدَهي أن تتركز الدراسات والمعارف الأولى حوله، لاستجلاء معانيه، والعمل بتوجيهاته، والاعتبار بقصصه. وقد عاش ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ثلاثة أرباع القرن بعد بعثة النبي ﷺ، وهي فترة كافية في حكاية المعارف لبلورة الكثير من الأفكار الأساسية، ورسم الكثير من الخطوط العريضة، وهذا ما نجده واضحاً عند ابن عباس كما سنرى في أثناء هذا البحث.

وضع العربية في صدر الإسلام:

كان العرب يتكلمون بلهجاتهم المحلية على السليقة دون معرفة شيء من القواعد التي تحكم نشاطهم اللغوي، كما هو شأن الناس اليوم حين يتحدثون بلهجاتهم الدارجة التي تلقفوها منذ الصغر من بيئتهم الاجتماعية، وظل الأمر على هذه الحال إلى أن جاء الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وكان كثير من أولئك الداخلين فيه من العجم، ونظراً لروح الإخاء والمساواة التي يشيعها هذا الدين بين جميع من يعتنقونه، بقطع النظر عن الفروقات العنصرية واللغوية التي تفرق بينهم، فإن خِلاطاً شديداً وقع بين العرب وغيرهم. والقاعدة المعروفة أنه ما احتكت لغتان إلا نشأ عن ذلك الاحتكاك لغة ثالثة تخالف اللغتين جميعاً، ولكنها تحمل الكثير من خصائصهما، قال الجاحظ: وقال نفيسٌ لغلام لي: الناس ويلك أنت حياء كلهم أقل! يريد: أنت أقل الناس كلهم حياءً. وقلت لقيس بن بريهة: هذا الصبيُّ في أي شيء أسلموه؟ قال: في أصحاب سِنْد نعال. يريد: في أصحاب النعال السندية[١].

---

(١) البيان والتبيين ٣: ٣٢٦.

فالألفاظ ـ على ما ترى ـ عربية، ولكن سبكها على مقتضى نظام اللغة الأم للمتكلم.

فانتشرت هذه اللغة الثالثة، وأصبح أطفال العرب يسمعون لغة غير صافية، بينها وبين لغة الأجداد الكثير من الفوارق الصوتية والتركيبية والدلالية. وهذا السبب يشكل ظاهرة عامة في اللغات كلها، إذ إن أصل علم اللغات عند جميع الأمم هو قيام تَضَادٍّ بين لغتين، أو مرتبتين في لغة واحدة كاللغة الأدبية المشتركة واللَّهجَات المحلية[١].

وانضم إلى هذا السبب سبب آخر، وهو أن الشريعة الغراء تفرض على المسلم أن يتكلم بالعربية في بعض المواطن كالصلاة مثلاً، وإن الكتاب العزيز الذي هو ملاك الثقافة الإسلامية كلها منزَّل بالعربية ومكتوب بها، فمن أراد التفقه في هذا الدين والتعمق في ثقافته، فلا مندوحة له عن تعلم العربية. وهذه مشكلة طارئة حقاً، إذ كانت العربية تؤخذ بالتلقي والمشافهة عن طريق السمع من عامة الناس، أما حين يأتي رجل ثَقِفَ لغةً أخرى، ويريد أن يتعلم العربية المشتركة الراقية التي نزل بها القرآن الكريم ـ وهي لغة لم يكن يسيطر عليها سوى الخاصة من قادة البيان وفرسان الكلمة ـ فإنه حينئذٍ لا بد من القواعد المختلفة التي يتعلم بواسطتها المسلمون الجدد من العجم[٢].

وعندنا الكثير من الروايات التي تشير إلى انتشار اللحن في عهد الخلافة الراشدة، بل إن من النصوص ما يدل على وجود بعض اللحن في عهد النبي ﷺ[٣]، ويروي أصحاب كتب التراجم حوادث جزئية كثيرة يزعمون أنها

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢ : ١٢٣، ١٢٤.

(٢) انظر إنباه الرواة ١ : ٦، وطبقات الزبيدي: ٢٢.

(٣) انظر مراتب النحويين: ٢٣، ونزهة الألباء: ١٩.

كانت السبب الدافع إلى وضع النحو، ولا حاجة بنا إلى استعراضها لشهرتها بين الناس، وإن كنا نظنّ أن تلك الحوادث كانت السبب في تفجير شعور الاستياء من التحريف الذي شاب العربية، وفي حث الجهود لإيجاد وسيلة تقي من ذلك التحريف وتحجزه عند حدٍّ.

من هو واضع النحو الأول؟

اختلاف الناس في أوَّليات الأشياء والمذاهب أمر طبيعي، وذلك لأن تفاصيل كثيرة تتدخل في هذا الأمر، ولكن أكثر القدماء يذهب إلى أن واضعه هو أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ)(١).

ويرى كثير من النحويين أن واضع النحو هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ت٤٠هـ) وأنه ألقى إلى أبي الأسود بعض أبواب النحو ليبني عليها ما تبقى من أصول العربية، قال القفطي: قال أبو الأسود: «دخلت على أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ فرأيته مُطرقاً مفكراً، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ فقال: سمعت ببلدكم لحناً، فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية. فقلت له: إن فعلت هذا أبقيت فينا هذه اللغة العربية. ثم أتيته بعد أيام، فألقى إليَّ صحيفة فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم: ما أنبأ عن المسمَّى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمَّى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل). ثم قال: تتبعه، وزد فيه ما وقع لك، واعلم أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمَر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر. فجمعت أشياء وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب،

---

(١) مراتب النحويين: ٢٤، وأخبار النحويين البصريين: ١٠، والفهرست: ٦٠، وإنباه الرواة ١: ٧، وبغية الوعاة ٢: ٢٢، وطبقات فحول الشعراء ١: ١٢.

فذكرت منها (إنَّ)، و(أنَّ)، و(ليت)، و(لعل)، و(كأن)، ولم أذكر (لكنَّ) فقال: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسَبها منها. فقال: بل هي منها فزدها فيها».

قال القفطي: ورأيت بمصر في زمن الطلب بأيدي الوراقين جزءاً فيه أبواب من النحو يُجمعون على أنها مقدمة علي بن أبي طالب التي أخذها عنه أبو الأسود الدؤلي(١). ويذكر بعض الأخبار أن عمر ـ رضي الله عنه ـ هو الذي أمر أبا الأسود بأن يعلم أهل البصرة العربية(٢).

ويذهب بعض القدماء إلى أن واضع النحو واحد من تلامذة أبي الأسود، وتضطرب الروايات أيضاً فيه، فمنها ما يذكر أنه نصر بن عاصم، ومنها ما يذهب إلى أنه عبد الرحمن بن هرمز(٣). ولكن أكثر الروايات على أن هذين الرجلين لم يكونا في المرحلة الأولى من وضع العربية، وإنما أخذاها عن أبي الأسود، أو توسعا فيها، كما توسع فيها غيرهما من تلامذة أبي الأسود من أمثال يحيى بن يعمر، وعنبسة الفيل، وعطاء بن أبي الأسود، وميمون ابن الأقرن(٤) ولعل هذا هو الأقرب.

موقف الباحثين المعاصرين:

يرى بعض المستشرقين، وتابعهم بعض الباحثين العرب، أن الحكايات المروية حول وضع النحو من قِبَل علي بن أبي طالب أو أبي الأسود لا تعدو أن تكون أساطير موضوعة، لا أساس لها من الصحة(٥).

---

(١) إنباه الرواة ١: ٤، ٥. وانظر كذلك نزهة الألباء ١٨، ومراتب النحويين ٢٤، والفهرست: ٦٠، وإشارة التعيين ٦، ٧.

(٢) إنباه الرواة ١: ١٦.

(٣) أخبار النحويين البصريين ١٠، ١٥، وطبقات الزبيدي٢٧.

(٤) أخبار النحويين البصريين: ١٠، ومراتب النحويين ٣٠، وطبقات الزبيدي ٢٦.

(٥) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢: ١٢٣.

ونجد قريباً من هذا الرأي عند الأستاذ أحمد أمين[١]، ولكنه تخلص من هذا بعذر، هو أن الرواة متفقون على أن أبا الأسود ابتكر شكل المصحف، وهذه الخطوة الأولية لفتت الأنظار إلى التفكير في الإعراب ووضع قواعد له. ويرى أن واضع النحو هو الخليل بن أحمد الفراهيدي ذو العقل الجبار المبتكر...

وقد تابعه على هذا بعض الباحثين[٢].

والقدماء كانوا يفرقون بشكل جيد بين أبواب النحو التي ذكروا أنها باكورة هذا العلم، وبين شكل المصحف بالنقط، والدليل على ذلك أنهم كانوا ينسبون في كثير من الأحيان وضع النحو إلى علي ـ رضي الله عنه ـ وشكل المصحف إلى أبي الأسود[٣]. ومن القدماء من نسب وضع الأبواب الأولى في النحو ونقط المصحف كليهما إلى أبي الأسود نفسه، مما يدل على إدراك الفرق بينهما دون لَبْس[٤].

وحجة من أنكر نسبة وضع النحو إلى أبي الأسود قائمة على النظر، وهو أن المرحلة التي عاش فيها أبو الأسود لم تكن تسمح بوضع ما نسب إليه، لأن المعطيات الثقافية والعقلية التي كانت متوفرة آنذاك لم تكن كافية لولادة هذه التصاريف والتقاسيم الفلسفية.

وحجة أخرى، وهي: أن كتب النحاة لم تنسب أي رأي في النحو لأبي الأسود، ولم يرد في الموسوعات النحوية كالأشموني والهمع والمفصَّل

(١) ضحى الإسلام ٢: ٢٨٥.
(٢) المدارس النحوية: ١٦.
(٣) أخبار النحويين البصريين ١٢.
(٤) مراتب النحويين ٢٦، ٢٩.

وغيرها ذكر لابن أبي إسحاق (ت١١٧هـ) إلا في ستة مواضع، كما لم يرد اسم عيسى بن عمر (ت١٤٩هـ) إلا في ثمانية عشر موضعاً، كما لم يرد اسم أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) إلا في تسعة وثلاثين موضعاً. وانتهى الأستاذ إبراهيم مصطفى ـ رحمه الله ـ بعد هذه الإحصائيات إلى أن هذا النحو لم يضع شيئاً منه أبو الأسود ولا أحد تلاميذه[1]. والمنهج الإسلامي في البحث يقوم على القاعدة الذهبية: «إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل»، والروايات التي تَنْمِي وضع النحو إلى أبي الأسود كثيرة وصحيحة، مما يجعل تجاهلها وضرب عُرض الحائط بها نوعاً من الهدم لأصول الرواية عندنا. أما منهج المستشرقين ومن تفيأ ظلالهم فإنه لا يُعَوِّل كثيراً على الأسانيد وعدالة الرواة، بقدر ما يعوِّل على المعطيات العلمية لتلك الروايات ومدى انسجامها مع التطور الطبيعي للعلوم والمعارف.

وعندي أن عدم وقوف كثير من الباحثين على الملاحظات النحوية التي ثبتت عن ابن عباس، جعلهم يعدُّون عمل أبي الأسود ضرباً من النشوز عن المعطيات الثقافية والعقلية في عصره. وأنا لا أستبعد أن يكون قد حصل نوع من التحريف أو التزيد في تسمية الأبواب النحوية الأولى التي نسبت إلى أبي الأسود، إذ هذا من الفرعيات التي قد يقع فيها الخلط والغلط، ولكن أن تكون تلك الروايات الكثيرة جميعاً مصنوعة مزورة، فهذا غير مقبول...

وقد حاول بعض الباحثين المعاصرين أن يثبت عدم غرابة وضع أبي

---

(١) المفصَّل في تاريخ النحو: ٥٥، ٥٦.

الأسود للنحو عن طريق سوق بعض الأبيات الشعرية التي قالها أبو الأسود، أو نسبت إليه، والتي كانت مجال بحث في كتب النحاة[١].

وهذا لا يتحصل منه شيء! وإذا كان مثل هذا يُعدُّ بداية للنشاط النحوي، فإن ما ورد عن ابن عباس في هذا المضمار أَوْلى بجعله البداية الحقيقية للتفكير اللغوي، بل إن المقارنة بينهما معدومة تماماً، على ما سنراه فيما نستقبل من صفحات هذا الكتاب.

صلة أبي الأسود بابن عباس:

كانت الصلة بين علي بن أبي طالب وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ على خير ما يرام على ما هو ذائع، كما كانت كذلك بين علي وبين أبي الأسود، فقد قال علي لابن عباس: اذهب لتكون أميراً على الشام، ولكن ابن عباس أَبَى ذلك، لأنه ليس من المصلحة عزل معاوية في ذلك الوقت، فولاه على البصرة. وحين خرج ابن عباس إلى صفين استخلف أبا الأسود الدؤلي على الصلاة بأهل البصرة، وزياداً على بيت المال[٢]. ويبدو أن المعاصرة بين الرجلين كانت طويلة، إذ إن أبا الأسود توفي سنة ٦٩هـ، أي بعد وفاة ابن عباس بسنة واحدة، وهذه الصحبة أوجدت شيئاً من الانسجام وتشكيل الرأي المشترك بينهما، فقد ذكروا أن رجلاً قام إلى ابن عباس يسأله عن أشعر الناس، فقال ابن عباس: أخبره يا أبا الأسود. فقال: الذي يقول:

فإنك كالليل الذي هو مُدرِكي ... وإن خِلْتَ أن المنتأى عنك واسعُ[٣]

---

(١) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ٣٦ وما بعدها.

(٢) السير ٣: ٣٥٣، وطبقات الزبيدي ٢٤. وانظر أيضاً في مدح أبي الأسود لآل البيت الكامل للمبرد ٣: ١١٢٥.

(٣) الأغاني ١١: ٥.

بل إن الأمر تجاوز هذه الجزئية إلى ما يتعلق بوضع النحو نفسه، فقد ذكر القفطي أن أبا الأسود أتى ابن عباس فقال: إني أرى ألسنة العرب قد فسدت، فأردت أن أضع شيئاً يقوِّمون به ألسنتهم. قال: لعلك تريد النحو، أما إنه حق، واستعن بسورة يوسف[١].

فالصلة العلمية بين الرجلين قائمة، وتأثر أبي الأسود بابن عباس ثابت، وهذا يجعل ملاحظات ابن عباس الجزئية باعثاً على شيء من التنظيم لأبواب النحو، وتلك هي البدايات الطبيعية، حيث تبدأ الفنون بمجموعة من الملاحظات والآراء المتناثرة، ثم يهيئ الله تعالى لها يداً رفيقة حانية، وذهنية منظمة، تنطلق بها نحو التنهيج العام، والتأصيل الشامل.

---

(١) إنباه الرواة ١ : ١٦.

ما قبل ابن عباس

لقد أثار القرآن الكريم كوامن الفكر العربي، وقدح زناده حين بعثه من رقاده الطويل، وأنقذه من ظلمات الجاهلية إلى نور الهداية والإسلام. ولما كان العرب قليلي الممارسة للقراءة والكتابة، وكان القرآن الكريم يخاطب العرب بما جرى عليه أهل اللسن والفصاحة فيهم، لا بما ألفوه في حياتهم الاجتماعية، كان استغلاق بعض كلمات من الذكر الحكيم أمراً وارداً. ونظراً لاشتمال القرآن الكريم على الكثير من الصور البيانية والأساليب الرفيعة التي لا تستوي لكل عربي، كان شرح النبي ﷺ لبعض تلك الأساليب والصور أمراً مطلوباً، لا سيما والعربية تملك من الثراء اللفظي والمرونة الدلالية ما يجعل الحاجة ماسَّة لتحديد معاني بعض الألفاظ حسب سياقات النص، ومرادات الخالق جلّ وعلا، ومن ثَمَّ فإن ابن عباس لم يبدأ من فراغ، بل كان متفاعلاً مع الجو العام الذي فتح عينيه عليه، ولكن تأخر وفاته أتاح له من ذلك ما لم يُتح لغيره. وإليك بعض النصوص التي تصور الوسط العام الذي نمت فيه معارف ابن عباس اللغوية حتى استوت على سُوقها، وآتت أُكُلَها:

١- قد قام النبي ﷺ بتفسير بعض ألفاظ القرآن الكريم التي كان يرى أنها مشكلة على بعض أصحابه، لا سيما تلك الألفاظ التي فيها نوع من الكناية أو المجاز أو الألفاظ التي لا يعرفها إلا الخاصة منهم، كتلك التي كانت معروفة عند قبائل العرب الأخرى. ومن البدهي أن النبي ﷺ لم يفسر كل المشكل، لأن معرفة الصحابة متفاوتة، فما يشكل على هذا قد يكون

واضحاً عند غيره، ولكن النبي ﷺ رسم للنجباء من أصحابه الخطوط العريضة التي يسيرون عليها في فهم الكتاب العزيز، وإدراك مراميه، ففي قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[١] أخرج البخاري عن الشعبي عن عدي قال: «أخذ عدي بن حاتم عقالاً أبيض، وعقالاً أسود، حتى إذا كان بعض الليل نظر، فلم يستبينا، فلما أصبح قال: يا رسول الله، جعلت تحت وسادي.. قال: إن وِسادَك لعريضٌ أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك»!

وفي رواية ثانية عند البخاري أن عدياً قال: «قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين. ثم قال: لا، بل هو سواد الليل وبياض النهار»[٢]. فقد بيَّن عليه الصلاة والسلام أن المراد من الآية ليس ما يتبادر إلى الذهن، وإنما هما كناية عن الليل والنهار. وهذا فتح لباب في التفسير يعتمد على صرف اللفظ عن ظاهره بمقتضى دلالات السياق.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[٣]. روي أن النبيَّ ﷺ قال: «رزقكم: شكركم، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، ونجم كذا وكذا»[٤]. وكأن النبي ﷺ فسَّره على حذف مضاف، أي: وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون، أي: تضعون التكذيب موضع الشكر لما رزقكم الله تعالى إياه.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٨٧.
(٢) فتح الباري ٨: ١٨٢.
(٣) سورة الواقعة، آية ٨٢.
(٤) جمع الفوائد ٢: ٢٦٨.

وكان الأمر يتجاوز تفسير القرآن في بعض الأحيان إلى تفسير ألفاظ تروى في بعض أحاديثه الشريفة؛ فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويُلقَى الشح، ويكثر الهَرْج. قالوا: يا رسول، وما الهرج؟ قال: القتل القتل»[(١)]. فقد استغلقت لفظة (الهرج) على بعض السامعين، ففسرها له ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ويذكر بعض اللغويين أن هذه الكلمة حبشية، وهي تعني عند الحبشة القتل[(٢)].

ومع تقدم الزمان ودخول الناس في دين الله أفواجاً، تعقدت العقلية العربية تبعاً لنمو الخلفية الثقافية، وزادت الحاجة إلى التفسير، وحيث إنَّ تمكن المسلمين الجدد من العربية محدود. وقد عبر عن هذا أحد العلماء بقوله: «التفسير الذي روي عن ابن عباس أكثر من الذي روي عن ابن مسعود، والذي روي عن ابن مسعود أكثر من الذي روي عن علي، والذي روي عن علي أكثر من الذي روي عن الخلفاء الثلاثة»[(٣)].

٢- في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أصبحنا نسمع عن شيء اسمه العربية، كما أن عمر ـ رضي الله عنه ـ خط المنهج الذي سار عليه ابن عباس في تفسير غريب القرآن اعتماداً على الشعر، كما صرنا نسمع عمليات التصحيح اللغوي، حيث ذكر ابن الأنباري بسنده: أن عمر مرَّ بقوم وهم يرمون، فقال: «ما أسوأ رميكم! قالوا: نحن متعلمين. قال: لفظكم أسوأ من رميكم. فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين، يُضحى بالضبي؟ قال:

---

(١) فتح الباري ١٠: ٢٦٨.

(٢) اللسان ٢: ٣٨٩ (هرج).

(٣) الإتقان ٢: ١٨٧.

وما عليك لو قلت: ظبي؟! قال: إنها لغة. قال: رُفع العتاب، لا يضحى بشيء من الوحش»[١]. ونحن نستفيد من هذا النص شيئاً إضافياً على التصحيح، وهو ابتداء تعرف الناس على اللهجات التي تتكلم بها القبائل الأخرى، واعتبارها فصيحة مقبولة، للمتكلم أن يخرج عن لهجته إليها.

وذكر أيضاً: أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري «أن مرْ من قِبَلَكَ بتعلم العربية، فإنها تدل على صواب الكلام، ومرهم برواية الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق»[٢].

وقال سعيد بن المسيب: بينما عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على المنبر قال: يا أيها الناس، ما تقولون في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾[٣]؟ فسكت الناس، فقال شيخ من بني هذيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوف: التنقص. فخرج رجل، فقال: يا فلان، ما فعل دَينك؟ فقال: تخوفته، أي تنقصته. فرجع فأخبر عمر، فقال: أتعرف العرب ذلك في أشعارهم. قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تَمَكِه واكتنازه:

تخوَّف الرحلُ منها تامُكاً مَرِداً كما تخوّف عود النبعة السُّفنُ

فقال عمر: يا أيها الناس، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم[٤].

---

(١) الوقف والابتداء ١ : ٥٠ .

(٢) السابق، ١ : ٣٠.

(٣) سورة النحل، آية ٤٧ .

(٤) انظر القرطبي ١٠ : ١١٠، ١١١، والموافقات ٢ : ٨٧.

فالوسط العام كان مفعماً بمقاومة اللحن، وتفسير غريب الكتاب العزيز، كما صار الإحساس بالفوارق بين اللهجات واضحاً عند الكثيرين، بالإضافة إلى الاحتكام إلى الشعر في التفسير، واعتباره مصدراً أساسياً في ذلك. ومما هو مشهور في كتب التاريخ والتراجم تلك العلاقة الخاصة التي كانت تربط عمر بابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ حيث كانا يتقارضان الثناء والسؤال، فعمر يسأل ابن عباس عن بعض المسائل، وابن عباس يسأل عمر، وكأن توافقاً خاصاً كان سائداً بينهما في العقل والرأي والحصيلة العلمية[١]. وهذا كان ذا أثر بالغ في مساعدة ابن عباس في الاندفاع نحو تشكيل حس لغوي واضح القسمات.

٣- كان من أعلام الصحابة في التفسير علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقد كانت له قدم راسخة في معرفة كتاب الله تعالى، وقد كان يقول: «والله ما نزلت آية من كتاب الله إلا وقد علمتُ فيم نزلت، وأين نزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً سؤولاً»[٢]. وهذا هو يتقارض الثناء مع ابن عمه ابن عباس، فيقول فيه: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق»[٣]، ويقول ابن عباس فيه: «قُسم علم الناس خمسة أجزاء، فكان لعلي منها أربعة أجزاء، ولسائر الناس جزء شاركهم فيه علي فكان أعلمهم به». وقال أيضاً: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبى طالب»[٤].

---

(١) القرطبي ١:٢٦، وحلية الأولياء ١:٣١٨.
(٢) الإتقان ٢:١٨٧.
(٣) البرهان ١:٨.
(٤) التفسير والمفسرون ١:٨٩.

وقد وعت لنا كتب التفسير الكثير من تفسير علي، ولا ريب أن تفسيره للقرآن اشتمل على تفسير الغريب، كما اشتمل على تفسير الأساليب القرآنية. وقد يأخذ تفسير الغريب عنده أسلوباً تمثيلياً، كما روي عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾(١) أنه أراد أن يُري أصحابه الإقماح، فجعل يديه تحت لحيته، وألصقهما، ورفع رأسه(٢).

وفي الجملة فإن مصطلح (العربية) أخذ يزداد رسوخاً وانتشاراً في النصف الأول من القرن الأول، كما أن تميز بعض الأصحاب على غيرهم بمعرفة العربية وحفظ الشعر صار أكثر وضوحاً، وقد ذكروا في هذا السياق أن زِرَّ بن حُبيش (ت٨٢) كان أعرب الناس، وأن عبد الله بن مسعود كان يسأله عن العربية(٣).

في هذا الوسط الذي قدمت لمحة عنه، نمت معارف ابن عباس اللغوية، وكانت إسهاماته التي سنلقي عليها الضوء فيما نستقبل من صفحات هذا البحث.

---

(١) سورة يس، آية ٨.
(٢) تفسير القرطبي ١٥: ٨.
(٣) طبقات القراء ١: ٢٩٤.

اراء ابن عباس النحوية

ما عثرنا عليه من أقوال لابن عباس في هذا المضمار يمثل عصر ابن عباس تمثيلاً صادقاً، إذ إنه من المعلوم أن كل علم تكون قواعده وضوابطه كامنة في تطبيقاته الأولى، وتكون ـ في العادة ـ نشأة المصطلحات متأخرة عن المباشرة العملية له، وهذا ما وجدناه عند ابن عباس حيث شكلت آراؤه المادة اللغوية الخام التي تصرفت على وجه أكثر دقة، وأحسن تبويباً وتنظيماً فيما بعد. وإليك نماذج وافية تمثل آراءه النحوية:

١ - الأدوات:

إدراك معنى الأداة فرع عن إدراك المعنى العام للآية الذي يقضي به السياق، ومن ثَمَّ فإن ما تناوله ابن عباس من الحديث عنها جزء من نظراته الدلالية التي تضمنها تفسيره لكلام الله ـ تعالى ـ ولكن دَرَجَ النحويون على ذكر الأدوات في بحوثهم النحوية. ويمكن أن نقسم إشاراته اللغوية في هذا الباب إلى قسمين:

أ- معنى الأداة نظراً لسياق استخدامها:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[(١)] روي عن ابن عباس أنه قال: «لو قالوا: (نعم) لكفروا». وقد شرح ذلك ابن هشام بقوله: «ووجهه أن (نعم) تصديق للمخبر بنفي أو إيجاب، ولذلك قال جماعة من الفقهاء: لو

(١) سورة الأعراف، آية ١٧٢.

قال: أليس لي عليك ألف، فقال: (بلى) لزمته، ولو قال: (نعم) لم تلزمه»[١]، وقد استفاد النحاة مما قرره ابن عباس أن همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي ـ كما هو الحال هنا في (ألستُ) ـ صار معناه التقرير، فيجاب بما يجاب به النفي[٢].

وقريب من هذا صرف الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى النفي، وذلك كما في قوله ـ عز اسمه ـ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾[٣] يقال: عييتُ بالأمر، إذا لم تحسنه، ولم يتجه لك، وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس تفسيره للاستفهام هنا على أنه في معنى النفي، أي: لم نعيَ به. قال أبو جعفر النحاس بانياً على إشارة ابن عباس: وهكذا الاستفهام الذي فيه معنى التقرير والتوبيخ يدخله معنى النفي، أي: لم يعي بالخلق الأول[٤].

وفي قوله ـ عز اسمه ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾[٥] روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه يرى أن الباء في (بأمرنا) بمعنى (إلى)، أي: يهدون الخلق إلى أمرنا[٦]، وقد ذكر ابن هشام أن الباء تأتي للغاية، ومثَّل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾[٧]. وقد ذكر بعض النحويين أن (أحسن) ضُمِّن معنى (لَطَف)[٨].

---

(١) المغني ١٥٣، ١٥٤.

(٢) النهر الماد من البحر ٤: ٤٢٠.

(٣) سورة ق، آية ١٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣: ٢١٥، ٢١٦.

(٥) سورة السجدة، آية ٢٤.

(٦) تنوير المقباس ٢٥٨.

(٧) سورة يوسف، آية ١٠٠.

(٨) المغني ١٤٣.

وفي قوله ـ جلَّ وعلا ـ : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[١] ذكر أبو حيان أن ابن عباس وقتادة ذهبا إلى أن (هل) هنا بمعنى (قد)[٢]. وقد تنازع النحويون في مجيء (هل) بمعنى (قد) على ثلاثة مذاهب، الأول قول الزمخشري حيث ذهب إلى أن (هل) لا تكون إلا بمعنى (قد)[٣]. والمذهب الثاني هو القول بما قاله ابن عباس. أما المذهب الثالث فهو منع مجيء (هل) بمعنى (قد)، وقد دعَّم هذا الاتجاه ابن هشام، وأوَّلَ ما جاء عن ابن عباس بأنه أراد الاستفهام التقريري، لا الاستفهام الحقيقي[٤]، وإذا قلنا: إن المراد هو الاستفهام التقريري، لم تكن ثمة حاجة إلى القول بمجيء (هل) بمعنى (قد).

وفي قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٥] روي عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله الذي قال: عن صلاتهم ساهون، ولم يقل: في صلاتهم ساهون[٦]. وروي عنه أنه قال: لو قال: في صلاتهم، لكانت في المؤمنين[٧]. وهذا إدراك منه ـ رضي الله عنه ـ أن معنى (في) الظرفية، فالمسلم لا يسهو عن الصلاة فيؤخرها عن وقتها، إذ هي عماد دينه. كما أنه يدرك أن (عن) للمجاوزة، فالمنافق يترك الصلاة ويتجاوزها.

---

(١) سورة الإنسان، آية ١.
(٢) البحر ٨: ٣٩٣.
(٣) الكشاف ٤: ١٦٦.
(٤) المغني ٤٦١.
(٥) سورة الماعون، الآيتين ٤، ٥.
(٦) الإتقان، ١: ١٤٥.
(٧) القرطبي ٢٠: ٢١٢.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[١] روي عنه أنه يرى أن (إن) هنا نافية، وكان يقول: لم يكن للرحمن ولد، وتحتمل عند المفسرين أن تكون شرطية إلى جانب وجه النفي[٢].

وفي قوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] نقل عن ابن عباس أنه فسَّر (إلا من ظلم) بـ(ومن ظلم ثم بدَّل حُسْناً) فجعل (إلا) بمعنى الواو[٤].

وقد ذهب إلى جواز مجيء (إلا) بمعنى الواو أبو عبيدة، ونسب ذلك ابن الأنباري إلى الكوفيين، وإن كان الفرّاء قد ردَّ ذلك[٥].

وعندي أن تفسير ابن عباس للآية هنا حلُّ معنى لا حلُّ إعراب، حيث أراد بيان مجمل المراد من الآية، ولم يرد التنصيص على أن (إلا) تأتي بمعنى الواو كما توهم ذلك أبو عبيدة والكوفيون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[٦] روي عن ابن عباس أنه ذكر أن معنى (أو يزيدون): بل يزيدون[٧]. وقد ذهب الفرّاء الكوفي إلى عين ما نقل عن ابن عباس محتجاً بأن التفسير ورد بذلك مع صحته في العربية[٨]. لكن ابن جِنّي لا يوافق الفراء على ذلك، ويرى أن

---

(١) سورة الزخرف، آية ٨١.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣: ١٠٣.
(٣) سورة النمل، الآيتين ١٠، ١١.
(٤) تنوير المقباس ٢٣٥.
(٥) انظر مجاز القرآن ١: ٦٠، والإنصاف: ١٥٥، ومعاني الفراء ١: ٨٩.
(٦) سورة الصافات، آية ١٤٧.
(٧) البحر: ٧: ٣٧٦.
(٨) معاني الفراء ٢: ٣٩٣.

(أو) هنا على بابها من إفادة الشك[١]. وقول ابن عباس ومن تابعه أكثر انسجاماً مع ظاهر النص، وأبعد عن الكلفة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[٢] ذهب نفر من النحويين إلى أن من أقسام الواو أن يؤتى بها بعد العدد (سبعة)، قال ابن هشام: «واو الثمانية ذكرها جماعة من الأدباء كالحريري، ومن النحويين الضعفاء كابن خالويه، ومن المفسرين كالثعالبي، وزعموا أن العرب إذا عدّوا قالوا: ستة، سبعة، وثمانية، إيذاناً بأن السبعة عدد تام، وأن ما بعدها عدد مستأنَف»[٣]. وقال ابن هشام: ويؤيده قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حين جاءت الواو انقطعت العدَّة، أي: لم يبق عدَّة عادٍّ يُلتفت إليها[٤]. وفي المسألة كلام آخر[٥].

ب- كما تحكّم المعنى في إخراج ابن عباس لبعض الأدوات عن معناها المباشر إلى معنى آخر، فإنه حكمه كذلك في الذهاب إلى القول بحذف حرف الجر، كما نرى ذلك في المثالين التاليين:

١- في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[٦] روي عن ابن عباس أنه قال: «صلِّ باسم ربك الأعلى، كما تقول: ابدأ باسم ربك. وحذف حرف الجر»[٧]، وعندي أيضاً أن هذا التفسير من ابن عباس حلُّ معنى لا حلُّ

---

(١) الخصائص ٢: ٤٦١.

(٢) سورة الكهف، آية ٢٢.

(٣) المغني ٤٧٤.

(٤) السابق ٤٧٥.

(٥) البحر ٦: ١١٤، ١١٥.

(٦) سورة الأعلى، آية ١.

(٧) البحر ٨: ٤٥٨. قوله: وحذف حرف الجر من كلام أبي حيان.

إعراب، لأن حذف حرف الجر لا يكون قياسياً إلا قبل (أنَّ) و(أنْ) و(كي)، وسمع في النثر في مواضع قليلة، مثل: نصحته ونصحت له، وشكرته وشكرت له، والأكثر التصريح بالحرف[١]. وعلى كل حال فإن كلام ابن عباس عبارة عن إشارات عامة افتتح بها علم العربية، ثم ما زالت تتفاعل مع المعطيات المختلفة إلى أن تشكلت على صورة معينة.

٢- في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[٢] قال الزمخشري: «وعن ابن عباس على القسم [ربِّ] بإضمار حرف القسم، كقولك: (اللهِ لأفعلنَّ) وجوابه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كقولك: (والله لا أحد في الدار إلا زيد)»[٣].

وقد علق الشيخ عضيمة على الوارد عن ابن عباس بقوله: «ولعل هذا التخريج لا يصح عن ابن عباس، إذ فيه إضمار الجارِّ في القسم، ولا يجوز عند البصريين إلا في لفظة (الله)، ولا يقاس عليه، ولأن الجملة المنفية في جواب القسم إذا كانت اسمية فلا تنفى إلا بـ(ما) وحدها، ولا تنفى بـ(لا) إلا الجملة المصدرة بمضارع كثيراً، وبماضٍ في معناه»[٤].

ولم نعقد هذا البحث لاستقصاء ما ورد عن ابن عباس، ولا مناقشة الأقوال التي علقت على المروي عنه، وإنما أردنا التدليل على أن ما روي عنه يمثل بصدق البداية الحقيقية القوية للدرس اللغوي عندنا.

---

(١) أوضح المسالك: ٢٧٧.

(٢) سورة المزمل، آية ٨.

(٣) الكشاف ٤: ١٥٣.

(٤) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢: ٥٥.

٢- ضروب مختلفة من الملاحظات النحوية :

لا يخفى أن ما قدمناه من أقوال لابن عباس في الأدوات متفرع عن الحسِّ اللغوي العام المرتكز على المعنى، وسنعرض هنا أقوالاً أخرى في أبواب مختلفة ترتكز هي الأخرى على السليقة اللغوية المبنية على دلالات الألفاظ المباشرة القريبة التناول، كحذف المضاف وحذف المعطوف والتقديم والتأخير، وما شاكل هذا مما يحسُّه صاحب الذوق اللغوي السليم دون مشقة أو كلفة. . وإليك نماذج على ذلك.

أ- حذف المضاف :

في قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[١].

اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية على أقوال عدة، قال أبو حيان: «وعن ابن عباس: والعمل الصالح يرفع عامله ويشرِّفه. فجعله على حذف مضاف»[٢]. وهناك رواية أخرى عن ابن عباس ذكرها الفيروزأبادي، وهي: أن العمل الصالح يقبله الله بالكلم الطيب[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾[٤] ذكر القرطبي أن ابن عباس فسَّر الكنود بقوله: هو الكفور الجحود لنِعَم الله[٥]. وإذا كان الأمر كذلك، فيكون كذلك على تقدير مضاف محذوف.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ

(١) سورة فاطر، آية ١٠.
(٢) البحر ٧: ٣٠٤.
(٣) تنوير المقباس ٢٦٩.
(٤) سورة العاديات آية٦.
(٥) القرطبي ٢٠: ١٦٠.

أَيۡمَٰنُهُنَّۗ﴾[١] روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير (نسائهن): (نساء أهل دينهن)[٢]، ويكون في الآية على هذا مضافان محذوفان: (أهل)، و(دين).

ومن النظر في هذه الأمثلة يتأكد ما ذكرناه من قبلُ من أن هذه الإشارات اللغوية اعتمدت على المعنى العام للنص، وعلى ما يتمتع به ابن عباس من الحسِّ اللغوي المرهف.

ب - حذف المعطوف:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾[٣] قال أبو حيان: «قال ابن عباس وقتادة والسُّدِّي: في الكلام حذف تقديره: ولو أنزلنا ملكاً فكذبوه لقضي الأمر بعذابهم، ولم يؤخروا حسب ما سلف في كل أمة»[٤]. فحذف (فكذبوه).

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾[٥] قال أبو حيان: «قال ابن عباس: كلام محذوف، وتقديره: فسأل موسى فرعونَ بني إسرائيل، أي: طلبهم لينجيهم من العذاب»[٦].

ج - تأويل يمنع اتحاد الشرط والجزاء:

في قوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾[٧] قال ابن عباس:

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٥٥.
(٢) تنوير المقباس: ٢٦٣.
(٣) سورة الأنعام، آية ٨.
(٤) البحر المحيط ٤: ٧٨.
(٥) سورة الإسراء، آية ١٠١.
(٦) البحر ٦: ٨٥.
(٧) سورة الأعراف، آية ١٧٨.

المعنى: من يُرِدِ الله هدايته[١]، وذلك لأن الشرط والجزاء لا بد أن يتغايرا لفظاً، فإذا اتحدا احتيج إلى تأويل، وقد أوله ابن عباس بالإرادة. وقد أحسن في ذلك رضي الله عنه وعن أبيه.

د- حذف ناصب المفعول به:

في قوله سبحانه: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[٢] ذهب أبو عمرو بن العلاء إلى أن (والطيرَ) منصوب بفعل محذوف، تقديره: وسخرنا له الطير[٣]. وهذا هو عين الوارد عن ابن عباس[٤]، فيكون أبو عمرو متابعاً له في هذا.

هـ- حذف الحال:

في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٥] اختلف النحاة والمفسرون في تفسير هذه الآية وإعرابها اختلافاً عريضاً، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «في الكلام حذف تقديره: فأصابتكم مصيبة الموت وقد أشهدتموهما على الإيصاء»[٦]، ولا يخفى أن جملة (وقد أشهدتموهما) التي قدرها ابن عباس في محل نصب على الحال.

و- التقديم والتأخير:

وهو فرع المعنى، حيث يلاحظ النحوي ارتباط بعض المفردات أو

---

(١) البرهان ٢: ٢٩٥.
(٢) سورة سبأ، آية ١٠.
(٣) البحر ٧: ٢٦٣.
(٤) تنوير المقباس: ٢٦٥.
(٥) سورة المائدة، آية ١٠٦.
(٦) الدر المصون ٤: ٤٦٤.

الجمل بأخرى مع وجود فاصل يفصل بينهما، فيدعوه ذلك إلى تقدير يزيل ذلك الفاصل، كما نشاهده في الأمثلة التالية:

١- في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾(١) قال أبو حيان: «قال ابن عباس: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم»(٢)، ومراد ابن عباس أن (من دوننا) نعت لآلهة فكأنه قال: أم لهم آلهة دوننا أو غيرنا تكف الأذى عنهم.

٢- في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾(٣) في «تنوير المقباس»(٤) بعد قوله: (كلهن): مقدَّم ومؤخَّر. ومراده والله أعلم: أن (كلهن) عبارة عن توكيد للنون في (يرضين)، إذ المراد تقرير نسبة الرضا إليهن جميعاً، ولما كان الأصل في المؤكِّد أن يأتي بعد المؤكَّد، قدّر ابن عباس ذلك.

٣- في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا﴾(٥) ذهب ابن عباس ـ وتابعه مجاهد والأخفش وأبو حاتم وغيرهم ـ إلى أن في هاتين الآيتين تقديماً وتأخيراً، وأن تأويله: (الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً)(٦).

---

(١) سورة الأنبياء، آية ٤٣.

(٢) البحر ٦: ٣١٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٥١.

(٤) ٢٦٣.

(٥) سورة الكهف، الآيتين ١-٢.

(٦) المكتفى في الوقف والابتداء ١: ٣٦٦، ٣٦٧.

٤- في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾[١]. اختلف النحويون في متعلَّق الجار والمجرور (في السماوات وفي الأرض)، ولابن عباس رأي حسن في هذا، إذ جعل في الآية تقديماً وتأخيراً على تأويل: (وهو الله يعلم سرَّكم وجهركم في السماوات والأرض، فلا يخفى عليه شيء)[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٣] قال ابن عباس وقتادة: «في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة»[٤]. فيكون (في الحياة) متعلقاً بـ (يعذبهم)، ويكون (في الآخرة) مقدراً.

وكل هذه التقديرات في الآيات السابقة رائدها المعنى كما لا يخفى.

ز- زيادة (كان):

في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾[٥] قال ابن عباس: «القبلة في الآية: الكعبة، و(كنت) بمعنى: (أنت) كقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾[٦] بمعنى: أنتم»[٧]. ومقتضى تفسير ابن عباس أن تُعدَّ (كان) هنا زائدة، ولما

(١) سورة الأنعام، آية ٣.
(٢) البرهان ١ : ٣٤٧.
(٣) سورة التوبة، آية ٥٥ .
(٤) القرطبي ٨ : ١٦٤ .
(٥) سورة البقرة، آية ١٤٣ .
(٦) سورة آل عمران آية ١١٠ .
(٧) البحر ١ : ٤٢٣.

كان النحاة يشرطون شروطاً خاصة لزيادة (كان)[١]، علّق أبو حيان على ما نقل عن ابن عباس في هذا بقوله: وهذا من ابن عباس ـ إن صحَّ ـ تفسير معنى لا تفسير إعراب، لأنه يؤُول إلى زيادة (كان) الرافعة للاسم والناصبة للخبر، وهذا لم يذهب إليه أحد. والذي صار بأبي حيان إلى هذا هو البناء النحوي العام القائم على العامل والمعمول، وهذا ما لم يكن يعرفه ابن عباس، ولا أهل زمانه!

ح - زيادة (لا):

في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[٢] روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان يقرأ: (لأن يعلم أهل الكتاب) على اعتبار أن (لا) المثبتة في المصحف زائدة من حيث المعنى، فدلل على ذلك بحذفها من القراءة[٣]. وهذه القراءة شاذة لخروجها على رسم المصحف، وإن كان المعنى عليها.

ولعلنا لاحظنا بساطة هذه الملاحظات النحوية التي أوردناها، كما لاحظنا مناسبتها لعصر ابن عباس الذي يتسم البحث فيه بصورة عامة بالسذاجة والتناثر، كما لاحظنا كذلك سيطرة المعنى وهيمنته بعيداً عن التعقيدات الصناعية التي بزغ فجرها في مرحلة تالية.

وبهذه النماذج نختم الحديث عن التفكير النحوي عند ابن عباس.

---

(١) انظر الهمع ١ : ١٢٠.

(٢) سورة الحديد، آية ٢٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣ : ٣٧٠.

ابن عباس وتأسيس علم الدلالة

نزل القرآن الكريم باللغة الأدبية المشتركة التي تكونت من صفوة أساليب قادة البيان لدى عرب الجاهلية عامة، والقرشيين خاصة، إذ إن القرآن الكريم حين تحدى العرب بأن يأتوا بسورة من مثله، كان تحديه موجهاً نحو الخاصة منهم. ومن البدهي أن الأدبية المشتركة كانت قريبة جداً من اللهجات المحلية التي كان يتحدث بها الناس في شؤونهم العامة، كما أن سيطرة الشعراء والخطباء وأشياعهم من أولي اللسن على الأدبية المشتركة كانت متفاوتة، حيث يأخذونها بالدُّرْبة والمِرَان. وقد ذكر بعض علمائنا الأقدمين أن إدراك أسرار الإعجاز القرآني لا يتاح للعربي إلا بمْقدار ما يتقن من الشعر والخطابة والكتابة، يقول الباقلاني: «وقد علمنا تفاوت الناس في إدراكه ومعرفة وجه دلالته، لأن الأعجمي لا يعلم أنه معجِز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة، فإذا عرف عجز أهل الصنعة حلَّ محلهم، وجرى مجراهم في توجه الحجة عليه، وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالي في هذه الصنعة»(١).

وهناك نصوص عدَّة تدل على أن ابن عباس كان لا يعرف معاني بعض الكلمات في القرآن الكريم لأنها من لهجة غير لهجة قريش، أفسحت لها الأدبية المشتركة صدرها، أو لاعتبارات معيَّنة في سياق الآية حددت معاني خاصة لتلك الكلمات، لم تتجه لابن عباس. وإليك بعض تلك النصوص:

(١) إعجاز القرآن ٣٤.

ذكر الزركشي أن ابن عباس كان يقول: لا أعرف (حناناً)، ولا (غِسلين)، ولا (الرقيم)[١].

وذكر أيضاً أن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها[٢].

وقال ابن عباس: ما كنت أدري ما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[٣] حتى سمعت ابنة ذي يزن الحِمْيري، وهي تقول: أنا أفاتحك، يعني: أقاضيك[٤].

وكان ابن عباس يقول: ما أرسل الله ـ عز وجل ـ من نبي إلا بلسان قومه، وبعث الله محمداً بلسان العرب[٥].

كل هذه النصوص يشير إلى أن العرب كانوا يتفاوتون في معرفة ألفاظ القرآن الكريم، وإن كان إدراك فحوى النص ومراميه العامة متيسراً في أكثر الأمر[٦].

وتُعَدُّ جهود ابن عباس في تفسير غريب القرآن ومشكله، وشرح بعض أساليبه، البداية الحقيقية لتأسيس (علم الدلالة اللغوية)، ذلك العلم الذي يُعدُّ الآن عند الغربيين قمة الدراسات اللغوية، وهو علم يقوم على بحث

---

(١) البرهان ٢ : ١٧٥، وإعراب القرآن للنحاس ١ : ٣١١.

(٢) البرهان ١ : ٢٩٣.

(٣) الأعراف، آية ٨٩.

(٤) السابق. . .

(٥) الصاحبي ٤٣.

(٦) انظر أثر التطور في التفسير : ٥٧.

العلاقة بين اللفظ والمعنى بصورة أساسية، وقد تطورت ملاحظات ابن عباس، وتفسيراته للغريب والمشكل إلى ما عرف بتفسير غريب القرآن، حيث أفردت له المصنفات فيما بعد. ودعم ذلك في مرحلة تالية الرسائل اللغوية المتخصصة في موضوعات معينة، كالمطر والريح والنبات والخيل وغيرها.

وقد هيأ ذلك كله لولادة المعجم العربي الأول على يد نابغة العرب الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)(١).

ولما كان الوارد عن ابن عباس في هذا الباب غزيراً جداً، فإننا نقتصر هنا على عرض نماذج وافية تمثل رؤيته وجهوده في هذه السبيل. ولكن لا بد قبل عرض شيء من ذلك، من الإلماع إلى أنه لا يكفي لمعرفة معاني الألفاظ أن يعرف المرء ما تواضعت عليه بيئة لغوية معينة من الربط بين الرموز الصوتية ودلالاتها، ولكن لا بد من ربطها بالأحداث والمواقف المختلفة، كما لا بد من معرفة السياق العام الذي وردت فيه الآية أو الجملة، فمهما كانت براعة المرء اللغوية فإن نقص معرفته بما ذكرناه يؤثر إلى حد بعيد في إدراكه لمعنى النص ومراميه الدقيقة، ومن ثم فإن ابن عباس قسَّم موقف الناس من تفسير القرآن الكريم إلى أربعة أقسام، حيث روى عبد الرزاق في تفسيره عن سفيان الثوري عن ابن عباس أنه قسَّم التفسير إلى أربعة أقسام: قسم تعرفه العرب في كلامها، وقسم لا يُعذَر أحد بجهالته ـ يقول: الحلال والحرام ـ وقسم يعلمه العلماء خاصة، وقسم لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه فهو كاذب(٢).

---

(١) انظر المعجم العربي نشأته وتطوره ١ : ٣٩، والدلالة اللغوية عند العرب ١٠، ١١.
(٢) البرهان ٢ : ١٦٤.

وقد تولى الزركشي شرح هذه الأقسام وتوضيحها. وهذا التقسيم ـ إن صح عنه ـ فإنه دليل على إدراك ابن عباس لاختلاف مستويات العرب في فهم النص القرآني، وتفاوت قدراتهم في الاستفادة منه في مقام التشريع كما يدل من جهة أخرى على معرفة ابن عباس الدقيقة بجلال المهمة التي تصدَّى لها حين تصدَّر لتفسير الكتاب العزيز.

وتدلنا بعض النصوص على أن إدراك ابن عباس لأثر الملابسات التي تحيط بالنص في تحديد دلالته كان مبكراً جداً، فقد روى أبو عبيد عن إبراهيم التيمي أنه قال: «خلا عمر ذات يوم، فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن، فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن، ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. قال: فزجره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه، فقال: أعد عليَّ ما قلت. فأعاده عليه فعرف عمر قوله وأعجبه»[(١)].

وإذا كان لأسباب النزول أثر واضح في تحديد دلالة النص القرآني، فإن معرفتها وحدها لا تكون كافية في كل الأحوال لقَصْر أفهام البشر على فهم معنى واحد للآية، إذ إنَّ رحابة مدارج العربية في التعبير تجعل العربي في حَيْرة من أمره في مواضع كثيرة. ويروون في هذا السياق عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كلاماً قاله لابن عباس حين بعثه لمحاجَّة الخوارج، وإرشادهم إلى الصراط السوي، حيث أخرج ابن سعد عن عكرمة عن ابن

---

(١) الموافقات ٣:٣٤٨.

عباس: أن علياً أرسله إلى الخوارج، فقال: اذهب إليهم فخاصمهم، ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة. وأخرج من وجه آخر أن ابن عباس قال له: يا أميرالمؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله منهم؛ في بيوتنا نزل ـ أي: فأعرف فيم نزل ـ. قال: صدقت، ولكن القرآن حمّال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسنن، فإنهم لم يجدوا عنها محيصاً. فخرج إليهم فخاصمهم بالسنن، فلم تبق بأيديهم حجة(١).

وسنتناول هنا تفسيره للكلمات الغريبة من الذكر الحكيم تفسيراً دقيقاً محدداً، يمكن أن نسميه بالتفسير المعجمي، كما سنعرض لنماذج من تفسيره للكلمات على مقتضى ما يوحي به السياق مما يمكن أن نسميه بالتفسير السياقي، ونضم إلى ذلك شرحه لبعض العبارات وبعض المسائل المشكِلة التي توهم تدافع آيات الكتاب العزيز، غير قاصدين في كل ذلك إلى الإحفاء والاستقصاء.

١ - التفسير المعجمي المحدد:

وهو تفسير يتناول في الغالب كلمة واحدة من الآية، فيشرحها بما لا يزيد على كلمة أو كلمتين، يكون عادة أكثر شهرة عند الناس. وهناك مصدران رئيسان لهذا النوع:

١ - صحيفة ابن أبي طلحة عن ابن عباس، تلك الصحيفة التي قال فيها الإمام أحمد بن حنبل: «في مصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً». وقد اعتمد الإمام البخاري على هذه الصحيفة في شرح بعض المفردات الغريبة الواردة في

---

(١) الإتقان ١: ١٤٢.

كتاب التفسير من «صحيحه». وهذه الصحيفة ليست مقتصرة على شرح الغريب، بل فيها ذكر بعض أسباب النزول، كما أن فيها شرحاً كاملاً لبعض الآيات في بعض الأحيان. وقد حفظ الشطر الأكبر من هذه الصحيفة ابن جرير الطبري في «تفسيره»، ثم جاء الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ـ طيب الله ثراه ـ فألف كتاباً سماه: «معجم غريب القرآن مستخرجاً من صحيح البخاري» ذكر فيه ما روي عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة خاصة(١).

٢- مسائل نافع بن الأزرق: وهي مجموعة من الأسئلة ألقاها نافع بن الأزرق أحد زعماء الخوارج على ابن عباس، حيث ذكروا أن نافعاً قال لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن والفتيا بما لاعلم له به، فقاما إليه فقالا: نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله عز وجل، فتفسره لنا، وتأتينا بمصداقه من كلام العرب، فإن الله ـ عز وجل ـ إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين. قال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، تجدا علمه عندي حاضراً إن شاء الله تعالى. فقالا: يا ابن عباس، أخبرنا عن قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾(٢)، قال: (عزين) حَلَق الرفاق. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد ابن الأبرص يقول:

فجاءوا يُهْرَعون إليه حتى   يكونوا حول منبره عِزِينا؟

وعلى هذه الوتيرة يمضي نافع في توجيه أسئلته، ويمضي ابن عباس في الإجابة عنها حتى يمرَّ على نحو مئتين وخمسين موضعاً من الذكر الحكيم.

---

(١) انظر ما كتبه د. محمد كامل حسين عن هذه الصحيفة في مقدمة المعجم.

(٢) سورة المعارج، آية ٣٧.

وقد أخرج أفراداً من هذه المسائل أبو بكر بن الأنباري والطبراني والمبرد والسيوطي[١]. وقد نشرها في كتاب مستقل د. إبراهيم السامرائي تحت عنوان: «سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس»[٢]، وأجرت دراسة حولها د. عائشة عبد الرحمن، كما ألحقها محمد فؤاد عبد الباقي في آخر «معجم غريب القرآن»[٣]، وأخيراً جعلها الشيخ أبو تراب الظاهري محوراً لدراسة موسوعية ضمنها الجزء الأول من كتابه: «شواهد القرآن»[٤].

والذي يغلب على ظني أن هذه المسائل ليست جميعاً لنافع، وإنما المتصوَّر أن يكون نافع ألقى على ابن عباس بعضها، ثم جاء من ضم إليها ما يشبهها مما عثر عليه منسوباً لابن عباس، فصارت تنسب جميعها إليه[٥].

وهذه نماذج من التفسير المعجمي:

أ- قال نافع بن الأزرق: أخبرني عن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾[٦] قال: الرمز: الإشارة باليد والوَمَأ بالرأس. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

ما في السماء من الرحمن مرتَمَزٌ ... إلا إليه وما في الأرض من وَزَرِ[٧]

(١) انظر الوقف والابتداء ١: ٧٦ـ٩٨، والكامل ٣: ٢٢٢، والإتقان ١: ١٢٠.
(٢) نشر في بغداد عام ١٩٦٨م.
(٣) من صفحة ٢٣٥ إلى ٢٩٢.
(٤) طبع سنة ١٤٠٤هـ في جدة.
(٥) انظر في دعم ما نقول شواهد القرآن ٥٤٣.
(٦) سورة آل عمران، آية ٤١.
(٧) الإتقان ١: ١٢٤.

وإذا رجعنا إلى ما قاله في هذا أهل التفسير، وجدناه لا يخرج عما قاله ابن عباس، مما يدل على متابعتهم له[١].

ب - قال نافع لابن عباس: أخبرني عن قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[٢]، قال: في اعتدال واستقامة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت لبيد بن ربيعة يقول:

يـا عيـنُ هـلا بكيـت أربَـدَ إذ قمنـا وقـام الخصـومُ فـي كَبَـدِ[٣]

وقد تابع الفراء ابنَ عباس في هذا[٤]، لكن جماهير المفسرين وأهل اللغة يذهبون إلى أن الكَبَد هنا معناه: الشدَّة والعناء، فهو يكابد أمر الدنيا والآخرة. ومع أن المعاجم تورد المعنى الآخر الذي ذكره ابن عباس، إلا أن توجههم إلى أن المراد بها هنا هو التعب والمشقة، واستشهد بعضهم ببيت لبيد على معنى المشقة[٥]. فالراجح ما ذهب إليه الجمهور، إلا أنه ورد عن ابن عباس قولان آخران، أحدهما: أن المراد في شدة خَلْق، أي: شديد القوة والأسر. والثاني: ما عليه الجمهور من المشقة والتعب[٦]. وأجدر بهذا أن يكون الرواية الصحيحة عنه.

ج - قال نافع: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾[٧]. قال: السنا: الضوء. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال:

---

(١) انظر شواهد القرآن ١٦٦ وما بعدها.

(٢) سورة البلد، آية ٤.

(٣) الإتقان ١: ١٢٠.

(٤) معاني الفرّاء ٣: ٢٦٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣: ٧٠٤، مجاز القرآن ٢: ٢٩٩، مفردات الراغب ٤٢٠، والكشاف ٤: ٢١٣.

(٦) معجم غريب القرآن ١٧٦، وتفسير الخازن ٤: ٣٨٠.

(٧) سورة النور، آية ٤٣.

نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث يقول:

يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلا يجلو بضوءِ سناهُ داجيَ الظُّلَمِ[١]

وقد تابعت الجماهير ابن عباس فيما ذهب إليه، ولم ينازعه في هذا أحد نعلمه.

د- في قوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾[٢] تضافرت الروايات عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه فسَّر: (دهاقًا) بـ (ملأى)[٣]. وذكر السيوطي أن نافعاً قال لابن عباس: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾. قال: ملأى، أما سمعت قول الشاعر:

أتانا عامر يرجو قِرانا فأترعنا له كأساً دهاقا[٤]

وقال الطبري: قال ابن عباس لغلامه: اسقني دهاقاً، فجاء بها الغلام ملأى، فقال ابن عباس: هذا الدهاق[٥]. ويبدو أن تأكيد ابن عباس على هذا المعنى كان للرد على من يخالفه في هذا، حيث ذهب بعضهم إلى أن الدهاق في الآية ليس من الامتلاء، وإنما من التتابع، من الدهق الذي هو متابعة الشدّ. قال ابن منظور: والأول أعرف[٦]. وفي كتاب اللغات المنسوب لابن عباس أن استخدام (دهاق) بمعنى (ملأى) لغة هذيل[٧]. وإذا كان الأمر على هذه الصورة فإن الذين قالوا: (متابعة) لم يبعدوا

---

(١) الإتقان ١ : ١٢٠، ومعجم غريب القرآن: ٩٥.

(٢) سورة النبأ، الآيتين ٣٣ـ٣٤.

(٣) معجم غريب القرآن ٥٨.

(٤) الإتقان ١ : ١٢٧.

(٥) انظر تفسير الطبري ١ : ١٣.

(٦) اللسان ١٠ : ١٠٦(دهق).

(٧) اللغات في القرآن ٥١.

النُّجعة إذ من المحتمل أن يكون ذلك من باب تعدد اللهجات، لكن أكثر اللغويين على ما نسب إلى ابن عباس[١].

هـ - في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[٢] تظاهرت الرواية عن ابن عباس بأن المراد من (مترفين) هو التوسع في نعيم الدنيا[٣].

وذهب بعض اللغويين والمفسرين إلى أن المراد ب(مترفين) هنا هو: متكبرين أو مشركين[٤]، ولكن الجماهير تابعت ابن عباس فيما ذهب إليه[٥]. بل إن ابن منظور لم يذكر لـ(ترف) إلا معنى واحداً، هو (التنعُّم)[٦]، مما يدل على أن من فسَّر (مترفين) بـ(متكبرين) فسر اللفظة تفسيراً تقريبياً، إذ إن التكبر والبطر كثيراً ما يلازم السعة في الرزق والبسط في السلطان. كما يدل على أن من فسرها بـ(مشركين) إنما أراد الإشارة إلى أن هذا الوعيد الشديد لا يكون جزاء للمنعَّم وإنما للمشرك.

هذا وقد ظهر من هذه النماذج الخمسة التي ذكرناها أن تأثير تفسير ابن عباس في الخالفين بعده كان قوياً جداً، كما نستفيد منها أن إمكانات الخلاف في تفسير اللفظة الواحدة واسعة. وبالإمكان التوسع في الاطلاع على التفسير المعجمي من خلال النظر في (معجم غريب القرآن) و(شواهد القرآن)[٧].

---

(١) غريب القرآن لليزيدي ٤٠٩، ومجاز القرآن ٢: ٢٨٣، ومعاني الزجاج ٥: ٢٧٥.

(٢) سورة الواقعة، آية ٤٥.

(٣) انظر إعراب النحاس٣: ٣٣١، وتفسير القرطبي ١٧: ٢١٣، ومعجم غريب القرآن٢٠.

(٤) مجاز القرآن ٢: ٢٥١، والقرطبي ١٧: ٢١٣.

(٥) انظر معاني الفراء ٣: ١٢٧، وإعراب النحاس ٣: ٣٣١.

(٦) اللسان ٩: ١٧ (ترف).

(٧) وانظر كذلك: إعراب القرآن للنحاس ٢: ٦٨، ٢٣٠، ٣١٧، ٦٩١، ٧٦٥، ٣: ١٠١، ١١٦، ١١٧، ١٨٦، ٢١٦، ٢٣٨، ٢٥٧، ٢٦٢، ٣٠١، ٣٠٤، ٣١٥، ٦٧٧.
والوقف والابتداء لابن الأنباري: ١: ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤. =

٣- التفسير السياقي:

المراد بالتفسير السياقي: هو الاتكال على بعض القرائن والملابسات المستفادة من سياق الآية، أو من أسباب النزول، أو ما عرف من آية أخرى قطعية الدلالة، فيحمل ظني الدلالة على قطعيه، أو ما عرف من أحكام الشريعة الغراء. وهذا اللون من التفسير مارسه كل من تصدى لشرح الكتاب العزيز، وهو أمر لا مندوحة عنه في كثير من الأحيان، ولكن ابن عباس يُعدُّ بحق واضع اللبنات الأولى المكينة في هذا الاتجاه. وهذه بعض النماذج التي تصور ذلك اخترناها من مادة غزيرة منقولة عنه.

أ- قال نافع بن الأزرق لابن عباس: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾[1].

قال ابن عباس: «اللعنة بعد اللعنة». قال نابغة بني ذبيان:

لا تقذفنِّي بركن لا كِفاءَ له ... وإن تأثَّفك الأعداءُ بالرِّفَدِ[2]

وليس في معاجمنا (الرفد) بمعنى اللعن، وإنما مدار المادة على العطاء والعون ووصل شيء بشيء آخر. ولكن لما كان مقامهم في الدنيا مقام ذم وتوبيخ وغضب، وكان ما سيلقونه في الآخرة من جنس ما لاقوه في الدنيا ـ وإن كان أعظم وأبقى ـ، حمل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الرفد على اللعن لأنه من جنس ما أولاهم الله إياه في الدنيا. واعتماداً على السياق ذهب الكلبي إلى أن الرفد معناه الزيادة، أي: بئس ما يُرفَدون به بعد الغرقِ النارُ.

= وانظر حجة أبي زرعة: ٢٠٥، ٦٩٣. والمكتفى: ٦٠٧، والبحر المحيط: ٣: ١٥٧، ٢١٩.

(١) سورة هود، آية ٩٩.

(٢) الوقف والابتداء لابن الأنباري ١: ٨٥.

وذهب بعض اللغويين إلى بقاء المادة على أصلها، وهو العطاء، وقال: إن المعنى: بئس ما نعطيهم إياه يوم القيامة، ونرفدهم به[١].

ب- وقال نافع: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾[٢]. قال: حبسهم، أما سمعت قول أمية:

أُركسوا في جهنم أنهم كانوا عتاةً قولون كذباً وزورا[٣]

وعند البخاري أن ابن عباس فسَّر أركسهم بـ (بدَّدهم)[٤]. وفي «المقباس» أن ابن عباس فسرها بـ (ردهم إلى الشرك)[٥].

ومن الواضح أن مادة (ركس) تعني الردَّ والرجوع، ولا علاقة للحبس والتبديد بأصل المادة. وقد ذكر القرطبي ما يعتقد أنه السبب الذي دفع ابن عباس إلى تفسيره ذاك وهو أن المنافقين في الآية: قوم بمكة آمنوا، وتركوا الهجرة. قال الضحاك: وقالوا: إن ظهر محمد ﷺ فقد عرفنا، وإن ظهر قومنا فهو أحب إلينا، فصار المسلمون فيهم فئتين، قوم يتولونهم، وقوم يتبرؤون منهم، فنزلت الآية[٦]. فتفسير الحبس إذن ظاهر حيث حبس أولئك المؤمنون عن الهجرة.

لكن الذي في «البخاري» عن زيد بن ثابت، قال: رجع ناس من أصحاب النبي ﷺ من أُحد، وكان الناس فيهم فرقتين، فريق يقول: اقْتلهم، وفريق يقول: لا. فنزلت[٧].. وهذا يؤيد ما في «المقباس».

(١) تفسير القرطبي ٩ : ٩٤.
(٢) سورة النساء، آية ٨٨.
(٣) الإتقان ١ : ١٢٩.
(٤) صحيح البخاري ٦ : ٩٣.
(٥) تنوير المقباس ٦٣.
(٦) تفسير القرطبي ٥ : ٣٠٦.
(٧) صحيح البخاري ٦ : ٩٣.

ج- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[١] روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال في تفسيرها: «ولا يَنُحْنَ»[٢]، وظاهر أن المعروف أوسع في دلالته من ترك النياحة، ولكن هناك ما يدعو إلى هذا التخصيص، فقد روت أم عطية عن النبي ﷺ أن ذلك في النوح. وهناك روايات أخرى تدل على ذلك[٣]. وبهذا تكون بعض القرائن والبينات قد جذَّرت دلالة النص، وركزتها في نوع من أنواع المعروف.

د- في قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[٤] روي عن ابن عباس أنه فسر (حرام) بـ(وَجَبَ)، أي: قدَّر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا[٥]. وذكر الزجاج أنه روي عن ابن عباس أنه قال: لا يرجعون إلى توبة.

وليس في أصل اللغة ما يدل على أن (حَرُمَ) تأتي بمعنى (وَجَبَ)، وإنما هي مادة تدور في أكثر معانيها حول المنع، ولكن حتى يستقيم المعنى ـ إذ الهالك لا يرجع إلى الدنيا، أو إلى التوبة ـ صار ابن عباس إلى هذا التأويل.

وكانت هناك سبيل أخرى في هذا سلكها بعض اللغويين، وهي: أن (حرم) على أصلها من المنع، ولكن (لا) في (لا يرجعون) زائدة[٦]. وبهذا يتحد المعنى في التأويلين، وفي هذا التأويل من صرف الكلام عن ظاهره مثل ما في تأويل ابن عباس، ولا حرج.

---

(١) سورة الممتحنة، آية ١٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣:٤١٨.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٨: ٧٣.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٩٥.

(٥) تفسير ابن كثير ٣: ١٩٤.

(٦) انظر اللسان ١٢: ١٢٦ (حرم).

هـ- روى ابن الأنباري بسنده عن ابن عباس أنه قال: (ريب): شك إلا مكاناً واحداً في الطور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾[١] يعني بها حوادث الأمور، وأنشد ابن عباس:

تربَّص بها ريبَ المنونِ لعلها ... تطلَّقُ يوماً أو يموتُ حليلها[٢]

وهذا يدل على أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ استعرض مادة (ريب) كلها في الذكر الحكيم، كما يدل على أنه حكَّم السياق حين أعطى لآية الطور حكماً خاصاً فجعل الريب فيها بمعنى حوادث الأمور، أو صروف الدهر وما تأتي به الأيام. وقد حاول الراغب أن يجعل (ريب المنون) من جنس غيرها حين قال: «سماه ريباً لا أنه مشكَّك في كونه، بل من حيث تُشكِّك في وقت حصوله، فالإنسان أبداً في ريب المنون من جهة وقته، لا من جهة كونه»[٣]. وما ذكره ابن عباس أصرح وأجلى[٤]. ويمكن أن يستدرك على ابن عباس هنا باستدراك جزئي، وهو أن القرآن الكريم استعمل الشك والريب في سياق واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[٥]، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾[٦]، ولا يكون التأويل هنا على معنى: في شك مشكِّك، والأَوْلى في مثل هذا أن يؤوَّل الريب بالظِّنة والتهمة، أي: في شك مصحوب بالاتهام. وإطلاق

---

(١) سورة الطور: آية ٣٠.
(٢) الوقف والابتداء ١: ٩٨، ٩٩.
(٣) المفردات: ٢٠٥.
(٤) انظر الصحاح: ١: ١٤١ (ريب).
(٥) سورة هود، آية: ٦٢.
(٦) سورة فصلت، آية ٤٥.

الريب بمعنى الاتهام عربي صريح[١] ولكن تقسيم ابن عباس يعد في غاية الدقة إذا ما نظر إلى الحالة المنهجية والثقافية التي كانت سائدة آنذاك.

والوارد عن ابن عباس في هذا المضمار يُعيي الحاصر[٢]، ولكنني أود أن أنبه على أمر، وهو أن عدم اعتناء علمائنا القدامى بتتبع تطور الدلالة الذي سارع به اختيار الله تعالى للعربية لتكون لغة كتابه، واختيار العرب ليكونوا النواة الأولى لهذه الأمة ـ أدى إلى اختلاط المعاني الأصلية للكلمة بالمعاني الجديدة التي اكتسبتها الكلمة المعجمية من خلال ورودها في سياقات معينة في الذكر الحكيم والحديث الشريف وكلام الناس بصورة عامة، وهذا يجعل الباحث يتردد كثيراً عند إرادة الفصل بين المعاني الأصلية والطارئة. ولابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ القَدَح المعلى، والحظ الأوفى بين الصحابة الكرام في هذا الأمر، لكثرة الوارد عنه في التفسير، ولمعرفته الفذَّة بدلالات الألفاظ.

٣ - شرحه لبعض العبارات :

قد يتجاوز ابن عباس بيان اللفظة المفردة إلى توضيح مجمل الآية، وهذا من صميم العمل المعجمي ـ على ما هو معروف ـ ولكن طبيعة العصر لم تكن تقتضي التوسع في مثل هذا اللون من الشرح والتوضيح، إذ إنَّ الفصحى ما زالت لغة القوم، وما زال التحريف الذي دخلها محدوداً جداً مما يجعل ما يخفى على القارىء للنص العزيز لا يتجاوز في الصفحة

---

(١) اللسان ١ : ٤٤٢ (ريب).

(٢) انظر للتوسع في هذا الجانب عند ابن عباس شواهد القرآن: ٢٩٧، ٣٨٧، ٥٢٦، ٧١٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣: ١١٤، ٢٢٣، ٢٣٢، ٣٦٩، والمكتفى ٣٩٣.

الواحدة الكلمة أو الكلمتين، ومن ثم فإن ما ورد عن ابن عباس من هذا القبيل يعدُّ محدوداً إذا ما قورن بغيره. وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

أ- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾[١] قال الفراء: وحدثني حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بذلك، يقول: «سؤالك إياي ما ليس لك به علم عملٌ غير صالح»[٢]. وهذا الشرح يصور فهم ابن عباس الترتيب الذهني لهذه الآية، ولكن يعكر على هذا الشرح ما ذكروه من أن ابن عباس كان يقرأ: «إنه عَمِلَ غيرَ صالح»[٣]، إذ يكون المعنى: إن ابن نوح عمل عملاً غير صالح. والله أعلم بما صحَّ عنه من ذلك.

ب- أخرج ابن الأنباري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾[٤]، قال: لا تلبسها على غدر، ولا إثم، البسها وأنت طاهر البدن. وتمثل بقول غيلان الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ   لبستُ ولا من سوأةٍ أتقنَّعُ[٥]

فقد فهم ابن عباس من الآية الأمر بالطهارة المعنوية والحسية، وشمل مع المعنوية طهارة البدن، وهذا صرف للفظ عن ظاهره، ولا يكون عادة إلا عند وجود قرائن وأدلة خارجة عن النص مما يمس الموضوع.

(١) سورة هود، آية ٤٦.
(٢) معاني الفراء ٢: ١٧.
(٣) القرطبي ٩: ٤٦. وهذه القراءة سبعية.
(٤) سورة المدثر، آية ٤.
(٥) الوقف والابتداء ١: ٦٣.

ج- في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١] روي عن ابن عباس أنه قال: قال جبريل لمحمد ﷺ: «قل يا محمد: إياك نعبد، إياك نوحد، ونخاف، ونرجو يا ربنا لا غيرك»[٢]. وكأن ابن عباس يشير هنا إلى ما يعرف في البلاغة بـ(القصر) المستفاد من تقديم المفعول به على الفعل.

د- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[٣] روى ابن أبي طلحة في صحيفته عن ابن عباس أنه قال: «لا تبدي خلاخيلها ومعضديها ونحرها وشعرها إلا لزوجها»[٤]، ولا يخفى أن ابن عباس اعتمد في هذا التفسير على آثار أخرى توضح ما يحل للمرأة أن تكشفه أمام محارمها، لأن النصَّ القرآني هنا لا يدل على شيء مما ذكر.

هـ- في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾[٥] روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «يريد: كنتم في الدنيا تحاربون محمداً ﷺ، وتحاربونني، فاليوم حاربوني»[٦].

وهكذا يمضي ابن عباس يبين مراد الله تعالى ممهداً الطريق أمام الموسوعات التفسيرية التي ظهرت فيما بعد، والتي لا تكاد تخلو صفحة منها من قول لترجمان القرآن.

---

(١) سورة الفاتحة، آية ٥.
(٢) تفسير الطبري ١: ٥٣.
(٣) سورة النور، آية ٣١.
(٤) الإتقان ١: ١١٦.
(٥) سورة المرسلات، آية ٣٩.
(٦) القرطبي ١٩: ١٦٥.

٤- رأيه في بعض المشكلات والمسائل الموهمة:

هناك بعض المسائل الشائكة التي تفرق فيها رأي أهل العلم طرائق قِدداً، نظراً لانبهامها في التركيب اللغوي مع عدم وجود أثر يبين المراد منها، كما أن هناك بعض الآيات الكريمة التي تدل دلالة واضحة على المراد منها ولكن يعارضها ـ في الظاهر ـ آية أو آيات أخرى تدل على عكس ما دلت عليه، مما يربك ذهن السامع، ولكن الراسخين في العلم لا يرون في ذلك ما يراه العامة، ومن أجدر من ابن عباس بكشف اللبس وبيان الحق، وهو الذي دعا له رسول الله ﷺ بأن يعلمه الله التأويل، ويفقهه في الدين؟! وإليك بعض الأمثلة التي توضح ذلك:

أ- من جملة المشكلات الحروف المقطعة التي افتتح بها بعض السور الكريمة، وقد اختلف العلماء فيها اختلافاً واسعاً، حتى إن الزركشي ذكر أن فيها أكثر من عشرين قولاً! وقد صدّر الزركشي ما ذكره من تلك الأقوال بقول ابن عباس: «إن كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه ـ سبحانه ـ فالألف من (الله) واللام من (لطيف) والميم من (مجيد)، أو الألف من (آلائه) واللام من (لطفه) والميم من (مجده). قال ابن فارس معقباً على هذا القول: وهذا وجه جيد، وله في كلام العرب شاهد: (قلنا لها قفي فقالت قَ)، فعبر عن قولها: وقفتُ بـ(قَ).

وذكر ابن النحاس قولاً آخر عن ابن عباس في هذا، وهو: أن معنى (الۤر) أنا الله أرى. قال أبو جعفر: ورأيت أبا إسحاق ـ هو الزجاج ـ يميل إلى هذا القول، لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب، وأنشد:

بالخير خيراتٍ وإنْ شرّاً فا ... ولا أريد الشرَّ إلا أنْ تا

قال سيبويه: يريد إنْ شراً فشر، ولا أريد الشرَّ إلا أن تشاء[١]. وعندي أن التفويض إلى الله تعالى في هذا أقرب إلى السلامة، ما لم يكن هناك آثار يركن المرء إليها. والله تعالى أعلم.

ب- هناك خبر طويل مروي عن ابن عباس ذكره عبد الرزاق في «تفسيره»، وأخرجه الحاكم في «المستدرك»، وحكم له بالصحة، وذكره السيوطي في «الإتقان»، وعلَّق عليه، كما ذكر طرفاً منه ابن قتيبة. ونحن سنفرق هذا الحديث على ما ورد فيه من الآيات، ذاكرين بعض تعليقات من جاء بعد ابن عباس لتكتمل الصورة.

ومفتتح الخبر: أن رجلاً جاء إلى ابن عباس، فقال: أرأيت أشياء تختلف عليَّ من القرآن؟ فقال ابن عباس: أشكٌّ هو؟ قال: ليس بشك، ولكنه اختلاف. قال: هات ما اختلف عليك من ذلك[٢]. ثم شرع يسوق شُبَهه، وشرع ابن عباس يجلوها واحدة بعد أخرى على النحو التالي:

١- قال الرجل لابن عباس: أسمع الله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٣] وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[٤]؟ وقد أجاب على هذا بقوله: أما قوله: «ثم لم تكن فتنتهم....» فإنهم لما رأوا يوم القيامة وأن الله يغفر لأهل الإسلام، ويغفرالذنوب، ولا يغفر شركاً، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحده المشركون رجاء أن يُغفَر لهم، فقالوا: «والله ربنا ما كنا مشركين» فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢ : ٤٨.
(٢) انظر الإتقان ١ : ٢٧.
(٣) سورة الأنعام، آية ٢٣.
(٤) سورة النساء، آية ٤٢.

وأرجلُهم بما كانوا يعملون. فعند ذلك ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾.

ويشهد لرد ابن عباس ما ورد في حديث طويل عن أبي هريرة، فيه: «ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا ربِّ آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع. فيقول: هاهنا إذاً؟ قال: ثم يقال له: نبعث شاهداً عليك. ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليَّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله»[١].

وقد تلقي جواب ابن عباس بالقبول، وأضاف بعضهم وجهاً ثانياً في الجمع بين الآيتين، وهو: أن للقيامة مواطن، ففي بعضها يقع الكذب منهم، وفي بعضها لا يقع[٢].

٢- قال الرجل لابن عباس: وأسمعه يقول: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[٣] ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾[٤]؟ وقد أجاب ابن عباس بقوله: إنه إذا نفخ في الصور، فصَعِقَ من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[٥].

---

(١) صحيح مسلم ١٨: ١٠٤.

(٢) الكشاف ٢: ٢٦٩، والبرهان ٢: ٥٦.

(٣) سورة المؤمنون، آية ١٠١.

(٤) سورة الصافات، آية ٢٧.

(٥) الإتقان ١: ٢٧ وفتح القدير ٣: ٥٠١.

فقد جعل ابن عباس انقطاع المسألة بين الناس بعد النفخة الأولى، وجعل التساؤل بعد النفخة الثانية، وجعل جزءاً من آية (الزمر:٦٨) مرتبطاً بحالة، والجزء الثاني مرتبطاً بحالة أخرى.

قال أبو جعفر النحاس في آية (المؤمنون): «في معناه قولان: أحدهما قول ابن عباس: إنهم في وقت لا يتساءلون، والقول الآخر أبين من هذا: يكون معنى «فلا أنساب بينهم»: أنهم لا يتفاخرون بالأنساب يوم القيامة، ولا يتساءلون بها كما كانوا في الدنيا يفعلون[١]. وهذه غفلة من أبي جعفر رحمه الله، إذ إن قول ابن عباس إنما ورد في سياق بيان عدم التدافع بين الآيتين في تساؤل الناس يوم القيامة وعدم تساؤلهم، ولم يرد نفي نفع النسب[٢].

٣- قال الرجل: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ حتى بلغ: ﴿طَائِعِينَ﴾[٣]. ثم قال في الآية الأخرى: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾[٤] ثم قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾[٥].

وقد ردَّ ابن عباس على الرجل بقوله: «وأما قوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فإن الأرض خلقت قبل السماء، وكانت السماء دخاناً، فسواهنَّ سبعَ سماوات في يومين بعد خلق الأرض. وأما قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ

(١) إعراب القرآن ٢: ٤٢٨.

(٢) انظر حول متابعة كثير من العلماء لقول ابن عباس: تأويل مشكل القرآن ٦٦، ٦٧ والبرهان ٢: ٥٥، والكشاف ٣: ٥٦.

(٣) نص الآيات كاملاً: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ الآيات ٩-١١.

(٤) سورة النازعات، آية ٢٧.

(٥) سورة النازعات، آية ٣٠.

دَحَىٰهَآ﴾ يقول: جعل فيها شجراً، وجعل فيها نهراً، وجعل فيها جبلاً، وجعل فيها بحوراً».

وهذا التخريج من ابن عباس في غاية الجودة والوضوح، وقد اختاره ابن قتيبة والطبري، وذكره كل من تعرض للجمع بين الآيتين[1].

وهذه الشروح من ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تعدُّ بداية طيبة جداً لدراسات كثيرة جاءت بعد ذلك حاولت فهم الربط الموضوعي بين الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد في مواضع مختلفة.

وبذا يكتمل بيان وضع ابن عباس لأسس علم الدلالة أو الدراسات المعجمية، حيث بين علاقة اللفظ بالمعنى على مستويات عديدة، آخذاً بعين الاعتبار العلاقة الأصلية بينهما، وما يطرأ عليها من خلال سياقات النص، ورابطاً بين النصوص ذات الموضوع الواحد.

---

(١) انظر تأويل مشكل القرآن ٦٨، والبحر المحيط ٧: ٨٨، وفتح القدير ٥: ٣٧٨.

ابن عباس واللهجات العربية

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾(١)، فاختلاف الألسنة واللغات كاختلاف الألوان، وكاختلاف الخصائص النفسية والفكرية لدى البشر، وكل ذلك من آيات الله التي لا تحصى... وقد غدا من المسلَّم به اليوم أن العرب في الجاهلية ـ كما هو شأن أكثر الأمم ـ كانوا يتكلمون على مستويين اثنين:

مستوى الخاصة من قادة البيان وفرسان الكلمة، وذلك عند نظم القريض وصياغة الخطب، وفي المحاورات والمنافرات، وأمكنة القول الجاد بشكل عام.

ومستوى العامة حيث يتكلم الناس باللهجات المحلية في قضاياهم العامة وشؤونهم الاجتماعية، وهذا المستوى العام يسيطر عليه المتكلم سيطرة تامة، ويستوي فيه القارىء والأمي(٢).

ومن الباحثين من يرى أن الناس كانوا يتكلمون في الجاهلية وصدر الإسلام على ثلاثة مستويات:

١ - **اللغة المثالية**: وهي التي كانت تستعمل في الشعر والخطب.

٢ - **اللغة البدوية**: وهي التي كانت تستخدم في بوادي نجد وتهامة والحجاز.

---

(١) سورة الروم، آية ٢٢.

(٢) في اللهجات العربية ٤٠.

٣- **لغة الحواضر**: وهي التي كانت تستخدم في المدن كمكة والمدينة والطائف والحيرة وأطراف الشام. وهذه ليست على مستوى واحد، بل يختلف بعضها عن بعض، وتتفاوت حظوظها في القرب من اللغة المثالية[١]. وهذا القول أقرب إلى الحقيقة.

ومما لا ريب فيه أن الكتاب العزيز نزل باللغة المثالية التي هي موضع تفاوت في إتقان الناس لها، والتثقف بها بحسب الدُّربة والمران، وحفظ الشعر والأساليب الراقية.

وهذه اللغة الأدبية كانت مزيجاً من لهجات شتى، وكان عمودها الفقري ما يتكلم به خاصة أهل مكة، وقد نزل القرآن الكريم بها متحدياً خاصة العرب جميعاً، وأهل مكة في المقدمة منهم. والأدلة على عدم معرفة بعض الصحابة معاني بعض الكلمات كثيرة، وقد قدمنا عدم معرفة ابن عباس - وهو من خاصة الخاصة في هذا الباب - معاني بعض الكلمات لأنها من غير لهجة قريش[٢]. وفي هذا دليل أي دليل على أن في الذكر الحكيم من لهجات العرب ما يغاير لغة قريش.

الرواية عن ابن عباس في اللهجات الواردة في القرآن الكريم:

هناك رسالة عثر عليها د. صلاح الدين المنجد في المكتبة الظاهرية في دمشق بعنوان: «اللغات في القرآن» وهي برواية ابن حسنون المقرىء بإسناده إلى ابن عباس، وقد قام بتحقيقها ونشرها. ويَنْمِي هذه الرسالة إلى ابن عباس سلسلة من الرواة تبتدىء بـ «أخبرنا الشيخ أبو محمد إسماعيل ابن عمر بن إسماعيل بن راشد الحداد المقرئ قراءة عليه، قال: حدثني أبو

(١) المفصل في تاريخ النحو: ١٩، ٢٠.

(٢) انظر صفحة ٢٢ من هذا البحث.

أحمد عبد الله بن الحسين بن محمد، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد ابن أبان القرشي، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن أيوب المقرئ عن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله ـ عز وجل ـ : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(١)، قال: بلسان قريش، ولو كان غير عربي ما فهموه. . .».

ونظراً لعدم قيام دراسة حول هذه الرسالة في رواياتها المتعددة، فإني أبين هنا شيئاً عنها لعل في ذلك ما يفيد في دراسة نشأة علم اللهجات العربية عامة، وما يتعلق منها بالذكر الحكيم خاصة.

تبتدئ نسخة د. المنجد بعد تلك المقدمة باستعراض القرآن سورة سورة، ولا يختل هذا النظام إلا في النصف الثاني من الجزء الثلاثين، ومجمل الكلمات التي نسبت إلى قبائل عربية في هذه الرسالة يزيد قليلاً على ٣٢٠ كلمة، وعدد القبائل العربية فيها يصل إلى قرابة خمس وثلاثين قبيلة، كما أن كلمات غير قليلة فيها ذكر أنها وردت موافقة للغات أجنبية عن العربية، مثل الفارسية والحبشية والسريانية والعبرية وغيرها.

وقد ألحق بعض الناشرين هذه الرسالة بهامش «تفسير الجلالين»، وذكر أنها لأبي القاسم بن سلاّم موافقة لما ذكره السيوطي في «الإتقان»(٢). وفي أولها كذلك إسناد يَنمِيها إلى ابن عباس. ويلتقي الإسنادان عند الحسين بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبان القرشي، وينتهيان إلى عطاء عن ابن عباس.

---

(١) سورة اشعراء، الآية ١٩٥.

(٢) تبتدئ الرسالة في الصفحة ١٢٤على هامش الجلالين من طبعة دار إحياء الكتب العربية القاهرة.

وكان السيوطي قد قال: «قال أبو القاسم في الكتاب الذي ألفه في هذا النوع...»(١)، فالسيوطي ذكر أن الكتاب لأبي القاسم، فظنَّ الناشرون أن أبا القاسم هو أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)! والرجل اسمه: القاسم، ويكنى أبا عبيد. ولم يذكر ابن النديم أو غيره أن لأبي عبيد كتاباً بهذا الاسم(٢)، وليس في سلسلة إسناد هذه الرسالة في نسخة د. المنجد أو النسخة المطبوعة على هامش «تفسير الجلالين» ذكر لأبي عبيد أو أبي القاسم، مما يدل على أن مراد السيوطي في قوله: «أبو القاسم» شخص آخر، لا نعرفه.

الفوارق بين النصوص الثلاثة:

بعد المقارنة والموازنة بين نسخة د. المنجد، وما ذكر في هامش «الجلالين»، وما ذكره السيوطي في «الإتقان»، وقفنا على فوارق عدَّة نذكر أهمها فيما يلي:

١- أن ما ذكره السيوطي مرتب على القبائل، حيث إنه يسوق الألفاظ المنسوبة للقبيلة، والتي يُظن أن القرآن جاء عليها مجتمعة، على حين أن النسختين الأخريين مرتبتان على سور القرآن.

٢- في نسخة د. المنجد، ونسخة «الجلالين»، كلمات كثيرة نسبت إلى قريش بلغت في نسخة المنجد نحواً من مئة وأربع كلمات، وقريباً منه في نسخة «الجلالين». ولكن السيوطي في الإتقان أغفل ذكر قريش بصورة تامة في الفصل الذي عقده لما وقع في القرآن الكريم بغير لغة الحجاز، فلم

---

(١) الإتقان ١: ١٣٤.

(٢) الفهرست ٥٣، وإنباه الرواة ٣: ٢٢.

ينسب إلى قريش أية كلمة مع أنه ذكر في ذلك الفصل بعض الروايات المفرقة التي لم ينسبها إلى كتاب أبي القاسم. ويبدو من صنيعه أنه يعدُّ ما اختُلف فيه مما لم ينسبه إلى القبائل من لغة قريش، لأن القرآن الكريم نزل في الأعم الأغلب على لهجتها.

ولكن ما عنون به لذلك حين قال: «النوع السابع والثلاثون: فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز»[(١)] لا يتناسب مع المضمون، إذ نسب كلمات كثيرة في هذا الباب إلى قبائل حجازية، مثل كنانة وهذيل وخزاعة، مما يدل على أن مصطلح (الحجاز) لم يكن واضحاً في ذهنه، أو من باب تسمية الجزء باسم الكل، حيث لهجة قريش أهم اللهجات الحجازية.

٣- هناك خلاف في الترتيب بين نسخة د. المنجد ونسخة «الجلالين»، قد يكون نشأ من استدراك كلمة نسي الناسخ ذكرها في موضعها، فمن ذلك كلمة (تأس) من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[(٢)] أخرت في نسخة د. المنجد عن الآية (١٠٧)، على حين أنها ذكرت في نسخة «الجلالين» حسب ترتيبها في السورة[(٣)]. ووقع في نسخة د. المنجد كذلك أنْ ذَكَرت آية في غير موضعها، فقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[(٤)] ذكر في سورة الحج، على حين أنها ذكرت في نسخة «الجلالين» في موضعها[(٥)]. ونحو هذا كثير[(٦)].

---

(١) الإتقان ١ : ١٣٣.

(٢) سورة المائدة، آية ٢٦.

(٣) انظر اللغات في القرآن ٢٣، وتفسير الجلالين ١ : ١٣٠.

(٤) سورة الأنبياء، آية ١٠.

(٥) انظر اللغات في القرآن ٣٥، وهامش الجلالين ٢ : ٢٩.

(٦) انظر هامش اللغات: ٢٥، ٢٨، ٣٨، ٣٩.

٤- وردت في نسخة د. المنجد وفي «الجلالين» كلمات كثيرة لم ترد في «الإتقان»، فمثلاً لم يرد معنى ﴿ضَعِيفًا﴾، ولا ﴿وَسَيِّدًا﴾، ولا معنى ﴿تَدَّخِرُونَ﴾[١]. ولعل هذا يعود إلى ما أشار إليه من أنه ذكر ما عثر عليه في رسالة أبي القاسم مختصراً[٢].

٥- هناك خلافات بين النسخ الثلاث تعود إلى التصحيف والتحريف، فقد عمت البلوى في هذا، حيث إنه كثيراً ما يبتلى مؤلَّف بناسخ جاهل تعسر عليه قراءته، فيكتب ما يقع في حدسه وتخمينه. من ذلك: ما ذكر في كتاب «اللغات» من أن معنى ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[٣] بلغة عُمان: الموت، ومثله في «الجلالين». أما في «الإتقان» فقد ذكر أنها الموت بلغة (عمارة)[٤]. ونحو من هذا كلمة ﴿بَسًّا﴾[٥] فقد ذكر في نسخة د. المنجد أن معناها: (فتاً) بلغة كنانة، ولكن ذكر في نسخة «الجلالين» أنها بلغة (كندة)[٦]. ونحو من ذلك: ﴿وَسُعُرٍ﴾[٧] حيث ذكر في نسخة د. المنجد أنها (الجنون) بلغة (غسَّان)، وفي هامش «الجلالين» أنهاكذلك بلغة(عُمان)[٨].

٦- هناك خلافات بين النسخ تعود إلى نسبة بعض الكلمات إلى أصحابها من القبائل العربية، وذلك كما في ﴿ٱجْتَبَيْتَهَا﴾[٩] حيث ذكر في

---

(١) هي على التوالي من البقرة: ٢٨٢، آل عمران: الآيات ٤٩،٣٩.
(٢) الإتقان ١ : ١٣٥.
(٣) سورة البقرة، آية٥٥.
(٤) انظر اللغات ١٧، وهامش الجلالين: ٢٦، والإتقان ١ : ١٣٥.
(٥) سورة الواقعة، آية٥.
(٦) انظر اللغات ٤٦، وهامش الجلالين ٢ : ٢٠٥.
(٧) سورة القمر، آية ٤٧.
(٨) اللغات ٤٥، وهامش الجلالين ٢ : ٢٠٢.
(٩) سورة الأعراف، آية ٢٠٣.

نسخة د. المنجد أن معناها عند قريش بمعنى (أتيتها من ذات نفسك)، أما في نسخة «الجلالين» فهي كذلك، ولكن عند (ثقيف) بدل قريش[١].

ونحوه كلمة (يحسبنَّ)[٢]، فهي في نسخة المنجد بكسر السين لغة قريش، وبفتح السين لغة تميم، وفي نسخة «الجلالين» أنها بفتح السين لغة جرهم[٣].

٧- قد يجري الخلاف بين النسخ الثلاث في المعاني حيث تتفق النسبة إلى قبيلة ما، ولكن يجري الخلاف في معنى الكلمة عند القبيلة، وهذا الخلاف قد يكون قريباً من قبيل المترادف، أو ما يشاكله، وقد يكون بعيداً، فمن القريب كلمة ﴿حَرِّضِ﴾[٤]، فقد ذكر في نسخة المنجد أنها بمعنى (حرِّص) عند هذيل، وذكر في «الإتقان» وهامش «الجلالين» أنها عند هذيل بمعنى (حُضَّ)[٥]، والمعنى واحد. ولست أستبعد أن تكون إحداهما محرَّفة عن الأخرى.

وقد يكون الخلاف في المعنى بعيداً يعسر تأويله، وذلك كما في (أصحاب الرس)[٦]، فقد ذكر في نسخة د. المنجد أن المعنى: (أصحاب البنات) وعلل لذلك بأن أزد شنوءة يسمون الرسَّ البنين. أما في «الإتقان»

(١) اللغات: ٢٧، وهامش الجلالين ١: ١٤٦.

(٢) سورة الأنفال، آية ٥٩.

(٣) انظر اللغات ٢٧، وهامش الجلالين ١: ٥٤، وانظر في نحو هذا اللغات ٣٢، وهامش الجلالين ١: ٢٢٨، والإتقان ١: ١٣٥.

(٤) سورة الأنفال، آية ٦٥.

(٥) انظر اللغات ٢٧، وهامش الجلالين ١: ١٥٥، والإتقان ١: ١٣٤.

(٦) سورة الفرقان، آية ٣٨.

وهامش «الجلالين» فقد ذكر أن الرسَّ هي البئر عند أزد شنوءة[١]. والمعروف في التفسير أن الرسَّ البئر[٢].

وقد يصل الخلاف بينها إلى حد التضاد كما في قوله تعالى: ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[٣]؛ ففي نسخة د. المنجد أن المعنى: (سحر ذاهب)، وفي هامش «الجلالين»: أن المعنى (سحر دائم)[٤]. وبينهما تضاد كما لا يخفى.

وقد يتجاوز الخلاف دائرة العربية إلى اللغات الأخرى، كما في كلمة ﴿ يسٓ ﴾[٥] ففي نص د. المنجد و«الإتقان» معناها: (يا إنسان) بلغة طيئ، وفي هامش «الجلالين» أنها كذلك في لسان الحبشة[٦].

٨- ومن الفوارق الهامة بين هذه النصوص الثلاثة انفراد كل واحد منها بكلمات ليست موجودة في غيره، وإذا كان لنص «الإتقان» ما يسوِّغ سقوط بعض الكلمات منه لأن السيوطي ذكر أنه اختصره اختصاراً، فإن المسوغ معدوم بالنسبة للنصين الآخرين لأن إسنادهما واحد. والأمثلة على هذا كثيرة للغاية نكتفي بذكر عدد يسير منها:

فمما هو موجود في نص د. المنجد وليس موجوداً في «الإتقان»: (سيداً)، (حصوراً)، (تَهِنُوا)، (القيوم)، (ضعيفاً)، (جَنَفاً)، (وسطاً)[٧].

---

(١) اللغات ٣٧، والإتقان ١: ١٣٤، وهامش الجلالين ٢: ٦٢.
(٢) انظر القرطبي ١٣: ٣٢، ٣٤.
(٣) سورة القمر، آية ٢.
(٤) اللغات ٤٥، وهامش الجلالين ٢: ١٩٩.
(٥) سورة يس، آية ١.
(٦) الإتقان ١: ١٣٥، واللغات ٣٩، وهامش الجلالين ٢: ١٢٢.
(٧) انظر اللغات: ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٢.

ومما هو موجود في «اللغات» وليس موجوداً في هامش «الجلالين»: (سفيهاً)، (ضعيفاً)، (بالقسط)، (لطيف)، (زادته)، (عنتِّم)[١].

ومما هو في هامش «الجلالين»، وليس في نص د. المنجد: (ببدنك)، (نادى نوح ابنه)،(حصيد)، (خمراً)، (تفتدون)، (معايش)، (بظاهرٍ من القول)[٢].

٩- ورد في مقدمة نص د. المنجد ونص «الجلالين» ما ينسب إلى ابن عباس من قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٣] : «بلسان قريش ولو كان غير عربي ما فهموه». وقوله: «وليس من ألسنة الأمم أوسع من لسان العرب، والقرآن ليس فيه لغة إلا لغة العرب، وربما وافقت اللغة اللغات، وأما الأصل والجنس فعربي لا يخالطه شيء»[٤].

وقول ابن عباس: إن القرآن نزل بلسان قريش، يناقض موضوع الكتاب الذي عُقد لبيان ما ورد من لهجات العرب في الذكر الحكيم، إلا أن يقال على شيء من التكلف: إن ما جاء في الكتاب يمثل لهجات القبائل قبل أن تصبح جزءاً من اللغة الأدبية المشتركة، والتي كانت إسهامات قريش فيها هي الأقوى والأعظم، وأن ما ينسب إلى ابن عباس من أن القرآن نزل بلغة قريش، محمول على وضع لهجة خواص القرشيين بعد أن استوعبت خير ما في اللهجات الأخرى عبر الاحتكاك الثقافي في مواسم الحج والمواسم الأدبية.

(١) السابق ١٩، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٨.
(٢) انظر هامش الجلالين ١: ١٧٩، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٣، ٢٠٥.
(٣) سورة الشعراء، آية ١٩٥.
(٤) اللغات في القرآن ١٦.

ويلاحظ فيما نقلناه في النص الثاني أن مؤلف الكتاب ـ وهو قطعاً غير ابن عباس ـ كان يتجه إلى أن القرآن الكريم ليس فيه شيء من اللغات الأخرى. وقد كانت العبارة الغالبة في نص د. المنجد التعبير بـ(لغة توافق النبطية) أو نحو ذلك من السريانية أو العبرية. وهذا القول أحد ثلاثة أقوال للعلماء في هذا الأمر، وقد كان أبو عبيد والطبري يذهبان إلى هذا القول، ويريان أن هذه الكلمات المنسوبة إلى لغات غير العربية إنما اتفق فيها أن تتوارد اللغات، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد.

لكن ابن عطية وكثيراً من أهل العربية لا يجيزون توافق اللغات إلا على سبيل الشذوذ، ويذهبون إلى أن تلك الكلمات علقت بألسنة العرب نتيجة اختلاطهم بالشعوب والأمم الأخرى، وذاعت على ألسنة العرب، وأدخلوها في خطبهم وأشعارهم حتى جرت مجرى الكلام العربي الفصيح، ثم نزل القرآن، فوقعت فيه لتعريب العرب لها وفهمهم معانيها. وهذا القول هو المنقول عن ابن عباس، فقد ذكر الزركشي أن مذهب ابن عباس وعكرمة وغيرهما أنه وقع في القرآن ما ليس من لغة العرب[١]. وهذا القول هو الجدير بالصواب، وهو يناقض ما اتجه إليه مؤلف الرسالة التي حققها د. المنجد، ولكن في مخطوطة هامش «الجلالين» صرح في غير موضع أن كلمة كذا وردت بلغة كذا بمعنى كذا[٢]. وهذا دليل آخر على اضطراب تلك النصوص.

١٠- تشغل الكلمات التي نسبت للغات أجنبية في النصوص الثلاثة مساحة غير قليلة، واضطراب الأقدمين في هذا الباب كبير، حيث إن إرجاع

---

(١) البرهان ١ : ٢٨٧-٢٨٩.

(٢) انظر هامش الجلالين ٢ : ٣، ١٠، ٦٦، ١٠٦.

بعض الكلمات الأعجمية التي شاعت على ألسنة العرب إلى أصولها يقتضي معرفة باللغات الأخرى، وهذا ما لم يكن توفُّره وقتها سهلاً، ولذلك تختلف النصوص الثلاثة في هذا فيما بينها كما يختلف النقل عن غير ابن عباس فيها مما يؤكد ما ذكرناه من اضطرابهم في هذا. فمن ذلك (شطر)، حيث وردت في نص المنجد و«الجلالين» أنها بمعنى (تلقاء) بلغة كنانة[١]. وذكر السيوطي أن بعضهم يرى أنها بلغة الحبشة[٢]. ونحو من هذا كلمة (كِفْل) فقد اتفق النصان على أن معناها (النصيب) بلهجة موافقة للنبطية، لكن السيوطي يذكر أن ابن أبي حاتم روى عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن معناها (ضِعْف)[٣]. ومثل هذا كلمة (اليمّ) ففي نص د. المنجد أن معناها (البحر) بلغة توافق النبطية، على حين ذكر في نسخة الجلالين أنها كذلك بلغة توافق القبط. وفي «الإتقان»: عن ابن قتيبة أن اليمّ البحر بالسريانية. وعن ابن الجوزي أنها كذلك بالعبرية[٤]. ونحو هذا كثير، وهذا كله يدل على عدم معرفتهم الحسنة باللغات السامية والحامية التي كانت تتبادل مع العربية التأثير والتأثر.

١١- الظاهر أن ما تضمنته النصوص الثلاثة لم يلق اهتماماً من جمهور اللغويين حيث تجاهلوا ما نسب فيها إلى لهجات العرب، مما يدل على عدم شهرة هذه الرسالة، أو أنها من عمل رجل متأخر، جمعها ثم نسبها إلى ابن عباس من أجل ترويجها.

---

(١) اللغات ١٨، وهامش الجلالين ١: ١٢٦.
(٢) الإتقان: ١: ١٣٩.
(٣) اللغات في القرآن ٢٢، وهامش الجلالين: ١: ١٢٩، والإتقان ١: ١٣٩.
(٤) اللغات في القرآن ٣٤، الجلالين: ٢: ٢١، والإتقان ١: ١٤٠.

وللتأكد من الإحساس الذي كان يخالجني قمت بمراجعة ما ورد في نص د. المنجد في سورة البقرة ومقارنتها بكتابين لهما اهتمام واسع باللهجات، وهما «لسان العرب»، و«البحر المحيط» في التفسير، وكانت النتيجة أن معاني الكلمات (الثلاثين) الواردة في سورة البقرة أثبتت في «اللسان» و«البحر»، وأما نسبة هذه المعاني إلى قبائل بعينها فلم ترد في الكتابين[١]. وهذا يدل على عدم عتق هذه الرسالة، أو عدم ذيوعها عند العلماء السابقين، وإن يكن هذا غير قاطع ولكنه مؤشر قوي إلى ما قلنا. وما يأتي من وراء وراء يكون موضعاً لاستيحاش النفس منه ونفورها عنه.

١٢- إذا نظرنا في حظوظ القبائل من موافقة الذكر الحكيم على مقتضى النتائج التي تفيدها المعلومات الواردة في هذه النصوص، وجدناها لا تتناسب مع بعض نصوص اللغويين في إسهامات القبائل العربية في الأدبية المشتركة، فقد قال الفارابي: «والذين نُقلت اللغة العربية عنهم، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم بعض هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . . .»[٢].

فهذا النص يؤكد أن الرواة العرب اعتمدوا اعتماداً شبه مطلق على القبائل النجدية ومن جاورها، في جمع المادة اللغوية التي صاغوا منها قواعد العربية، ولهذا الرأي من يسانده من الباحثين المعاصرين[٣].

---

(١) ورد في اللسان (عزم) أن العزم عند هذيل هو الصبر. وفي النصوص الثلاثة أن معنى (عزموا) عند هذيل (حققوا).

(٢) المزهر ١ : ٢١١.

(٣) فصول في فقه العربية ٧٦.

ومقتضى هذا أن يكون لأسد وتميم وقيس نصيب الأسد في الكلمات الواردة في القرآن الكريم مما اختلفت فيه العرب، ولكن ما في النصوص الثلاثة يفيدنا خلاف ذلك، حيث إنه لم يرد ذكر لقبيلة أسد، أما تميم وقيس فقد ورد لكل منهما ثلاث عشرة كلمة، على حين ذكر لقريش مئة وأربع كلمات، ولهذيل خمس وأربعون كلمة(١).

وفي تكملة كلام الفارابي ما يشير إلى امتناع الرواة من الأخذ عن عدد من القبائل العربية الواقعة على أطراف الجزيرة، لاختلاطها بالأعاجم وتأثرها بلغاتهم، فهم لم يأخذوا عن لخم وجذام وقضاعة وغسان وتغلب واليمن وبكر وعبد القيس وأزد عُمان وثقيف وأهل الطائف(٢).

ونجد في النصوص الثلاثة كلمات كثيرة أخذت من أولئك الذين زعم الفارابي أن الرواة تحاموا الرواية عنهم(٣). ومع أنني لا أرفع نصَّ الفارابي فوق الشبهات، إلا أنه يضع إشارة استفهام حول هذه النصوص على الأقل!

١٣- وفي نهاية المطاف، فإن هناك نصاً عن ابن عباس يشير إلى خلاف ما هو معزوٌّ إليه في النصوص الثلاثة، فقد روى أبو عبيد من طريق أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: «نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوزان». وقد شرح أبو عبيد معنى العجز من هوازن، فقال: وهم خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف(٤). وهذا يصادم ما بين أيدينا حيث ورد في نص د. المنجد ذكر ثلاثين قبيلة!

---

(١) اللغات في القرآن ٧.
(٢) المزهر ١ : ٢١٢.
(٣) انظر اللغات في القرآن ٧.
(٤) المرشد الوجيز ٩٣، والمزهر ١ : ٢١٠.

وهذا الذي ذكرناه يدل في مجمله على عدم اطمئنان الباحث إلى صحة نسبة هذه النصوص إلى ابن عباس بهيئتها التي رويت لنا عليها، ولكن مما لا شك فيه أن بعض ما ذكر صحيح النسبة إلى ابن عباس، التقطه بعض من جمع هذه النصوص من روايات مختلفة عن ابن عباس، ثم نسب كل ما بين يديه إليه.

وإنما أطلت النفس في الحديث عن نسبة هذه النصوص، لأنني لم أر من حاول نقدها نقداً داخلياً موضوعياً، ولأن تمحيص النصوص الأولى التي وردت إلينا في اللهجات العربية أمر مهم للغاية حتى نتمكن من بناء شيء تالٍ عليه.

روايات لهجية متناثرة عن ابن عباس:

إذا كنا ذهبنا إلى ما ذهبنا إليه، فإن هذا لا ينفي وجود روايات أخرى في كتب معتمدة ترفع إلى ابن عباس بعض الأقوال التي تعبر عن معرفة حسنة بشيء من لهجات العرب، لأن عناية ابن عباس بتفسير القرآن وتأويله وحلِّ مشكله واهتمامه البالغ برواية الشعر، يجعل صدور بعض الملاحظات اللهجية عنه أمراً طبيعياً ومتوقعاً، بل إن ابن عباس نفسه استفاد من تعدد اللهجات العربية في الإمكانات التنويعية للدلالات المعجمية والسياقية.

وإليك شيئاً مما ورد عنه في هذه السبيل:

١- في قوله ـ عز اسمه ـ: ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ ﴾[١] روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال:

(١) سورة الرعد، آية ٣١.

(ييأس) بمعنى (علم) لغة للنَّخَع[١]. وفي مسائل نافع بن الأزرق أنها كذلك عند بني مالك[٢].

٢- أخرج أبو عمرو الداني بسنده إلى سفيان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾[٣] أنه قال: هو الغناء. قال: وهو لغة يمانية، اسمدي لنا، أي: تغنّي لنا[٤]. وفي مسائل نافع أن السمود هو: اللهو والباطل. دون نسبة إلى قبيلة بعينها[٥].

٣- في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾[٦] قال الفراء: حدثني حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: اللهو: الولد بلغة حضرموت[٧].

٤- في قوله ـ عز اسمه ـ: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[٨] روى الفراء بالإسناد السابق عن ابن عباس أنه قال: البور في لغة أزد عمان: الفاسد[٩]. لكن بعض اللغويين لا يخص هذا المعنى بقبيلة معينة، كما يفهم من ظاهر كلام الزجاج حين قال: «البائر في اللغة الفاسد الذي لا خير فيه»[١٠].

٥- في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا

---

(١) معاني الفراء ٢: ٦٤، واللسان ٦: ٢٦٠ (يئس).
(٢) الإتقان ١: ١٢١.
(٣) سورة النجم، آية ٦١.
(٤) المكتفى ٥٤٤، والدر المنثور ٦: ١٣٢.
(٥) الإتقان ١: ١٢٢.
(٦) سورة الأنبياء، آية١٧.
(٧) معاني الفراء ٢: ٢٠٠.
(٨) سورة الفتح، آية١٢.
(٩) معاني الفراء ٣: ٦٦.
(١٠) معاني الزجاج ٥: ٢٣، واللسان ٤: ٨٧ (بور).

﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[(١)] سأل نافع بن الأزرق ابنَ عباس عن معنى: (يفتنكم) في هذا الموضع فقال: يضلكم بالعذاب والجهد بلغة هوازن، أما سمعت قول الشاعر:

كل امرئ من عباد الله مضطَهدٌ   ببطن مكة مقهور ومفتونُ[(٢)]

ولعل الأصرح في المعنى هنا ما ذكره الطبري من قوله: «إذا خشيتم فتنة الكفار باعتدائهم عليكم في سجودكم»[(٣)]. إذ الضلال هنا غير مراد، إلا أن يقال: إنه قد ينتج عن الاعتداء عليكم ضعف في صلابة بعضكم فيتراجعوا عن دينهم.

٦- في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾[(٤)] سأل نافع ابن عباس عن معنى (نقبوا)، فقال: معناها: هربوا بلغة أهل اليمن، قال عدي بن زيد:

فنَقَّبوا في البلاد حذرَ المو   ت وجالوا في الأرض أيَّ مجالِ[(٥)]

٧- ذكر أبو بكر بن الأنباري بإسناده عن حيان بن أبجر، قال: كنت عند ابن عباس، فجاءه رجل من هذيل، فقال له ابن عباس: ما فعل فلان؟ لرجل منهم. قال: مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء. فقال ابن عباس: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[(٦)]، قال: الوراء: ولد

(١) سورة النساء، آية ١٠١.
(٢) الإتقان ١: ١٢٩.
(٣) مختصر تفسير الطبري ١: ١٦٧.
(٤) سورة ق، آية ٣٦.
(٥) معجم غريب القرآن: ٢٨٥ وقد نسبه أبو حيان في البحر ٨: ١٢٩ إلى الحارث بن حلزة.
(٦) سورة هود، آية ٧١.

الولد[١]. وفي هذه الرواية ما يشعر بأن إطلاق لفظ (الوراء) على ولد الولد وارد عند هذيل.

٨- ورد عن ابن عباس ما يشير إلى اهتمام بالغ بالوقوف على معاني الكلمة الواحدة عند قبائل مختلفة، من ذلك ما ذكره القرطبي عن ابن عباس أنه قال: (الكَنود) بلسان كندة وحضرموت: العاصي، وبلسان ربيعة ومضر: الكفور، وبلسان كنانة: البخيل السيئ المَلَكة[٢].

٩- وبإمكان المرء أن يقف على روايات كثيرة عن ابن عباس غير ما تقدم، تشير في مجموعها إلى اهتمام ابن عباس - رضي الله عنهما - بهذا اللون من المعرفة. ولا ريب عندي في اضطراب كثير من تلك الروايات، ولكن لو صح عُشر ما نسب إلى ابن عباس في هذا الباب، لكان كافياً لجعل ابن عباس المؤسس الأول لدراسات اللهجات العربية.

ولعل الله تعالى يهيئ في قابل الأيام من يقوم بدراسات مركزة حول أسانيد مختلف تلك الروايات عن ابن عباس، ونقد متون تلك الأخبار نقداً داخلياً ينفي عنها الزيف، ويكشف عن الأصيل الصحيح منها.

---

(١) الوقف والابتداء ١: ٧٣، وفتح القدير ٢: ٥١٢.

(٢) تفسير القرطبي ٢٠: ١٦٠.

ابن عباس وتوجيه القراءات القرآنية

أنزل الله ـ سبحانه ـ كتابه ليكون هدى للعالمين ورحمة، وحثهم على تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وتحدى به أرباب البيان وفرسان الكلمة، وطاولهم في التحدي بما حواه من بديع النظم وجزالة اللفظ، وحسن الحبك وشرف المعنى، فأذعنوا لذلك وأقروا بعجزهم، واستيقنت قلوب العرب جميعاً مسلمهم وكافرهم أن هذا القرآن ليس من كلام البشر. وإذا كان هذا موقف الخاصة، فموقف العامة منهم أبلغ في العجز والتقصير. ولما كان القرآن الكريم منزَّلاً ليعمل به الخاصة والعامة، شعر كثير من العامة بالحاجة إلى تفسير بعض ألفاظه، واشتدت الحاجة إلى ذلك حين دخل كثيرون من غير العرب في الإسلام، وحين تعقدت عقلية العربي وثقافته، وصار الإدراك العام للنص غير كافٍ، بل صار الوقوف على مفرداته كلمة كلمة مطلباً عاماً لهم.

ووُجد إلى جانب ذلك امتنان الله تعالى على عباده بإنزال كتابه على سبعة(١) أحرف تيسيراً على الأمة الأمية التي لم تتعود الدرس والكتابة، فأقرأ رسول الله ﷺ أصحابه بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وترتب على هذا في بعض الأحيان بعض الاختلاف في المعنى بين القراءات الصحيحة المختلفة، وهو خلاف تغاير وتنوع لا خلاف تضاد وتناف، واقتضى ذلك

---

(١) حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» رواه عن النبي ﷺ أكثر من عشرين صحابياً. انظر في هذا الحديث: القواعد والإشارات: ٢٣، ولطائف الإشارات: ١: ٣١، والإتقان ١: ٤٥.

توجيه العلماء لتلك القراءات، والكشف عن موافقتها للعربية والمعنى العام للآيات الواردة فيها، ورسم المصحف، إلى آخر ما هنالك من وجوه.

وفنُّ توجيه القراءات يحتاج إلى نسيج متميز من العلوم والمعارف، فعلى من يتعاطاه أن يعرف أصول العربية وأكثر فروعها، كما أن عليه أن يلمَّ بأسباب النزول وقواعد رسم المصحف، وأقوال المفسرين في المعنى العام المستفاد من الآية التي فيها القراءة التي يريد توجيهها.

نشأة توجيه القراءات:

نحن نعتقد أن توجيه القراءة ارتبط في نشأته بنشأة التفسير، وفرسان التفسير من الصحابة الكرام هم الذين وضعوا اللبنات الأولى في صرح هذا الفن. وإذا كان ابن عباس هو أجدر الصحابة رضي الله عنهم بلقب مفسر، فهو كذلك أجدرهم بجعله مؤسساً لفن الاحتجاج للقراءات. ولكن كثيراً من الباحثين لا يرون هذه الرؤية، ويُرجعون الاهتمام بتوجيه القراءات إلى فترات جاءت بعد ابن عباس بنحو قرن أو قرنين من الزمان. ولا أريد هنا أن أناقش هذا الموضوع، حيث كنت عرضت له في بحث آخر[١]. وما سنعرضه هنا من النصوص كافٍ لإثبات ما ندعيه.

وسأتحدث في هذا الباب عن ثلاث مسائل:

١- توجيه ابن عباس الصريح للقراءات.

٢- نماذج ذات دلالات خاصة من قراءته.

٣- استفادة من جاء بعده من أقواله في توجيه القراءات.

---

(١) أصول توجيه القراءات: ٣٧ وما بعدها.

ولعلنا بذلك نكشف عن إسهام ابن عباس في تأسيس هذا الفن والأثر الذي تركته أقواله في تنميته فيما بعد.

١ - توجيهه المباشر لبعض القراءات:

وردت عن ابن عباس روايات عدة في ترجيح بعض القراءات واستحسانها، كما وردت بعض الروايات التي وجه فيها القراءتين الواردتين على الكلمة الواحدة دون تقديم أي منهما على الأخرى، وهناك نوع ثالث من الروايات يفيد انتقاد ابن عباس لبعض القراءات لعدم انسجامها مع ما يتبادر إلى الذهن من المعنى، أو لخروجها على ما يرتضيه ابن عباس من قواعد العربية. وإليك بعض النماذج التي تغطي ذلك كله:

١- في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾(١) قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: (لا يسَّمَّعون) بالتشديد، وقرأ باقي السبعة: (لا يَسْمَعون) مخففة(٢). وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: (يَسْمعون) بالتخفيف، ويقول: هم يَسَّمَّعون، ولكن لا يسمعون، ولعل ابن عباس وجد القراءة بالتخفيف تنسجم مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(٣)، فقد اعتمد ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في اختياره قراءة التخفيف على ما هو ثابت من منع الجنّ من استراق السمع بعد بعثة النبي ﷺ.

(١) سورة الصافات، الآيتين ٧ـ٨.

(٢) السبعة: ٥١٧.

(٣) سورة الشعراء، آية ٢١٢. وانظر حجة أبي زرعة: ٦٠٥.

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] قرأ حمزة والكسائي: (قال اعلمْ) بالبناء على السكون، على أنه فعل أمر، وقرأ باقي السبعة: (أعلمُ) على أنه فعل مضارع. وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: (اعلمْ)، ويقول: أهو خير أم إبراهيم، إذ قيل له: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؟[٢] وظاهر هذا الخبر أن ابن عباس إنما اختار قراءة (اعلم) بالأمر لأنه يرى أنه لا يتنافى مع قدر ذلك الذي أماته الله ثم بعثه، أن يُؤمر؛ لأن الأمر وُجِّه إلى إبراهيم خليل الرحمن... فأنت ترى أن اعتماده في هذا التوجيه أيضاً على المعنى، ولكن دون الاستناد على نص قرآني أو شيء مقرر في أصول الشريعة. ولموجهي القراءات كلام كثير في هذا غير ما قاله حبر القرآن[٣].

٣- في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[٤] قرأ جمهور السبعة (سأل) بالهمز، وقرأ نافع وابن عامر: (سال) من غير همز[٥]. وقد رُوي عن ابن عباس أنه قرأ: (سال سايلٌ) بدون همز في الكلمتين[٦]، وذكر أبو زرعة أن ابن عباس وجَّه القراءتين السبعيتين بقوله: «من قرأها بلا همز فإنه واد في جهنم، ومن قرأها مهموزة يريد النَّضْر»[٧]. وإذا صح هذا عن ابن عباس فإنه يعد خطوة متقدمة في نمو هذا الفن، حيث لا يقتصر الموجه

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٩.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٦٠. وانظر في هذا الخبر الحجة لأبي زرعة ١٤٤، والكشف ١ : ٣١٢.

(٣) انظر إلى جانب المرجعين السابقين حجة أبي علي الفارسي ٢ : ٣٨٢.

(٤) سورة المعارج، آية ١.

(٥) انظر السبعة: ٦٥٠.

(٦) انظر البحر ٨ : ٣٣٢.

(٧) حجة أبي زرعة: ٧٢٠، ٧٢١.

على توجيه قراءة واحدة، وإنما يتجاوز ذلك إلى إيجاد الانسجام بين القراءتين بوجه من وجوه التأويل.

٤- ونحو من هذا ما نقل عنه في قوله - عز اسمه - : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾[١] حيث قرأ حمزة والكسائي: (كُرهاً) بالضم، وقرأ باقي السبعة بفتح الكاف[٢]. وقد نقل عن ابن عباس أنه قال: من قرأ (كُرهاً) بالضم، أي: بمشقة، ومن قرأ (كَرْهاً) بالفتح، أي: إجباراً، أي: أُجبر عليه. جعل ابن عباس (الكُره) فعل الإنسان، و(الكَره) ما أُكره عليه صاحبه[٣]. ويروى عن أبي عمرو بن العلاء ما هو قريب من قول ابن عباس[٤].

٥- في قوله - عز اسمه -: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[٥] قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: (أن يَغُلَّ) بفتح الياء. وقرأ باقي السبعة: (يُغَلَّ) بالبناء للمجهول[٦]. وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: (يَغُلَّ) بفتح الياء، ويقول[٧]: «كيف لا يكون له أن يُغلَّ وقد كان جائزاً أن يُقتل؟! قال الله تعالى: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ ﴾[٨]، قال: ولكن المنافقين اتهموا النبي ﷺ في شيء فُقد، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾[٩] أي: يخون أمته في المغانم، فنفى عنه الغلول»[١٠].

---

(١) سورة النساء، آية ١٩.
(٢) التيسير: ٩٥.
(٣) حجة أبي زرعة: ١٩٥.
(٤) الكشف ١: ٣٨٢.
(٥) سورة آل عمران، آية ١٦١.
(٦) السبعة: ٢١٨.
(٧) معاني الفراء ١: ٢٤٦.
(٨) سورة آل عمران، آية ١١٢.
(٩) سورة آل عمران، آية ١٦١.
(١٠) الكشف ١: ٣٦٣.

وظاهر هذا النص إنكار ابن عباس على من قرأ بضم الياء، لأنه حمل هذه القراءة على معنى نفي أن تُغَلَّ يدا النبي ﷺ إلى عنقه، وهي حالة أخف من القتل الجائز عليه. وقد روي عن يونس بن حبيب أنه قال: «كيف لا يُغل؟ بلى ويقتل»[(١)]. وهذا منه متابعة لابن عباس.

وسياق الكلام، وما ذكر من أسباب النزول لا ينسجم مع هذا المروي عن ابن عباس، وكلمة (يُغَلّ) تحتمل من الناحية اللغوية البحتة أن تكون على معنى: أن يُنسب إلى (الغلول)، أي: يُخَوَّن. كما تحتمل أن يكون على معنى: أن يغلَّه أصحابُه، أي: يخونونه بالأخذ من الغنيمة قبل قسمتها. ولذا ففي النفس شيء من صحة هذا الكلام عن ابن عباس!

٦- في قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[(٢)] قرأ لفيف من الصحابة، منهم أنس وأبو الدرداء وأبو هريرة ـ رضي الله عنهم ـ: «عندها جَنَّهُ المأوى»[(٣)].

وقد روي عن ابن عباس أنه سأل أبا العالية: كيف تقرؤونها يا أبا العالية؟ فقال: «عندها جنةُ المأوى». فقال: صدقت هي مثل الأخرى: «جنات المأوى»[(٤)]. وقد اعتمد ابن عباس في تأييد قراءة الجمهور هنا على آية أخرى ليست موضع نزاع، وعلى ما عُرف من السياق العام لآيات سورة النجم.

٧- في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[(٥)] قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: «في عين

(١) اللسان ١١: ٥٠ (غلل).
(٢) سورة النجم، آية ١٥.
(٣) المحتسب ٢: ٢٩٣.
(٤) السابق....
(٥) سورة الكهف، آية ٨٦.

حامية»، أي: حارَّة. وقرأ باقي السبعة: (حمئة)، والحمأة: الطين المتن المتغير. قال أبو زرعة: قال ابن عباس: «كنت عند معاوية، فقرأ (تغرب في عين حامية) فقلت: ما نقرؤها إلا (في عين حمئة). فقال لعبد الله بن عمرو ابن العاص: كيف تقرؤها؟ فقال: كما قرأتها يا أمير المؤمنين . قال ابن عباس: فقلت: في بيتي نزل القرآن. فأرسل معاوية إلى كعب: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال: أما العربية فأنت أعلم بها، وأما أنا فأجد الشمس في التوراة تغرب في ماء وطين، أراد أنها تغرب في عين ذات حمئة»(١). ويذكر القرطبي عن ابن عباس أنه قال: أقرأنيها أبيٌّ كما أقرأه رسول الله ﷺ: «في عين حمئة»(٢).

وبهذا يكون ابن عباس اعتمد في ترجيح هذه القراءة على المعنى، وقد أيَّد كعبٌ ابنَ عباس في ذلك، كما اعتمد على الإسناد، إذ إنه أخذ قراءته عن أقرأ الصحابة، وهو أخذها عن رسول الله ﷺ.

٨- في قوله تبارك وجهه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾(٣) قرأ نافع وابن كثير وعاصم: «يقصُّ» بالصاد، وقرأ باقي السبعة: (يقضي) بالضاد. وقد ذكر أبو زرعة أن ابن عباس كان يوجِّه قراءة (يقصُّ) بانسجامها مع قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾(٤) وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٥) وآيات أخرى. وقد عضد مجاهد قول

(١) حجة أبي زرعة ٤٢٩.
(٢) تفسير القرطبي ١١ : ٤٩.
(٣) سورة الأنعام، آية ٥٧.
(٤) سورة يوسف، آية ٣.
(٥) سورة النمل، آية ٧٦.

شيخه ابن عباس بقوله: لو كان (يقضي) لكانت: (يقضي بالحق) والعرب تقول: قضيت بالحق، قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ﴾[١]. وقد اختلفت الرواية في قراءة ابن عباس نفسه، فذكر النحاس أنه كان يقرأ (يقصُّ)، وذكر الفراء أنه كان يقرأ (يقضي)[٢].

٩- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾[٣] قرأ نافع: (والصابين) من غير همز، وقرأ باقي السبعة بالهمز[٤]. وقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: (ما الصابون؟ إنما هي الصابئون، ما الخاطون؟ إنما هي الخاطئون)[٥]. وفي هذا المثال نرى ابن عباس يرجح قراءة الهمز في هاتين الكلمتين، لأنه يرى أن الهمز أفصح من التسهيل، وهذا يدل على معرفة ابن عباس بلهجات العرب، كما يدل على معرفته بأصول الإعلال في العربية، حيث اتجه الجمهور من السبعة وغيرهم إلى القراءة بالهمز الذي حسَّنه ابن عباس، كما أن كثيراً من النحويين يرون أن قلب الهمزة ياء هنا بابه الشعر[٦].

١٠- في قوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[٧] قرأ بعض القراء بضم الصاد من (يصدُّون)، وقرأ بعضهم بكسرها[٨]. وقد ذكر الفراء بسنده إلى ابن عباس أنه قرأ:

---

(١) سورة غافر، آية ٢٠ وانظر حجة أبي زرعة ٢٥٤.
(٢) معاني الفراء ١ :٣٣٨، وإعراب القرآن للنحاس ١ : ٥٥١.
(٣) سورة البقرة، آية ٦٢.
(٤) السبعة: ١٥٧.
(٥) الدر المصون ١ : ٤٠٧.
(٦) البحر ١ : ٢٤١.
(٧) سورة الزخرف، آية ٥٧.
(٨) النشر ٢ : ٣٥٤.

«يصِدُّون»، أي: يضجون، يعجّون.

وروى بإسناده أيضاً: أن ابن عباس لقي ابن أخي عبيد بن عمير، فقال: إن عمك لعربي فما له يلحن في قوله: «إذا قومك منه يصُدّون»؟! إنما هي: «يصِدّون»[١]. فقد رأى ابن عباس أن المعنى هنا (يضجون)، لا (يعرضون) الذي يستفاد من ضم الصاد. وذكر بعض اللغويين أن مما يقوي ما ذهب إليه ابن عباس استخدام (منه)، وهي مناسبة لمعنى (يضجون). ولو كان المعنى على الإعراض والانصراف لقيل: (عنه)، لا (منه)[٢].

لكن بعض اللغويين يرى أنهما لغتان للعرب والمعنى واحد[٣].

وأنت إذا تأملت الأصول التي اعتمد عليها ابن عباس من السند والعربية والمعنى وتأييد النصوص الأخرى من القرآن والحديث، وتأملت ما اعتمده من جاء بعده من النحاة والمفسرين من ذلك، أيقنت أن الإضافات التي حدثت بعد ذلك في فن توجيه القراءة لم تكن أكثر من تفريع على ما أصّل، وترسمٍ لخطاه فيما خَطَّ ورسم.

وبهذا الذي أسلفناه يتبين أن ابن عباس هو المؤسس لهذا الفن وفي وقت مبكر جداً من تاريخ العلوم عند العرب، وما ذلك إلا لاكتمال أدواته ونفاذ بصيرته.

٢- نماذج ذات دلالة خاصة من قراءته:

كان أمام ابن عباس قراءات كثيرة ثابتة عن النبي ﷺ، وكان أمامه مجال

---

(١) معاني الفراء ٣: ٣٦، ٣٧.

(٢) حجة أبي زرعة ٦٥٢.

(٣) حجة ابن خالويه: ٣٢٢، والبحر ٨: ٢٥.

واسع لاختيار ما يراه ينسجم مع رؤيته للمعنى الذي يذهب إليه في الكلمة أو في الآية الواردة فيها القراءة، وما ينسجم كذلك مع معارفه اللغوية، فقد تكون إحدى القراءات في كلمة ما أكثر موافقة للأفصح في العربية. ونظن أن ابن عباس فعل ذلك في كثير من الأحيان، والذي شجع على هذا الاستنتاج الأمثلةُ التي ذكرناها لتوجيه ابن عباس للقراءات القرآنية، وما لمسناه فيها من التوافق بين قراءته وتعليله. وإليك بعض القراءات التي نعتقد فيها ذلك:

١- في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾[١] قرأ الجمهور: (يَثْنون). وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: (تَثْنَوْنِي) مضارع (اثنوني) على وزن (افعوعل)[٢].

قال ابن فارس: «العرب تزيد في حروف الفعل مبالغة، فيقولون: (حلا الشيء)، فإذا انتهى قالوا: (احلولى). ويقولون: (اقلولى على فراشه)، وينشدون:

واقلولين فوق المضاجع

وقرأ بعض القراء: «ألا إنهم تثنوني صدورهم» على هذا الذي قلناه من المبالغة»[٣]. وهذا من ابن عباس دليل على إحساسه اللغوي المرهف، كما أنه دليل على معرفته مسالك العرب في إحداث التكافؤ بين اللفظ والمعنى بالزيادة في المبنى إشعاراً بزيادة المعنى.

---

(١) سورة هود آية ٥.

(٢) البحر ٥: ٢٠٢.

(٣) الصاحبي ٤٤٥.

٢- في قوله ـ عز اسمه ـ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾[١] روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: (ولا يضارِرْ) بكسر الراء الأولى وإسكان الثانية[٢].

والمعروف أن الميل إلى الإدغام ظاهرة بدوية رويت عن تميم وغيرها من القبائل النجدية، وأن الميل إلى الفك في المضعَّفات ظاهرة حضرية مروية عن قريش في أفعال كثيرة، فالحجازيون يقولون: (اغضض)، و(لا تمنن)، و(إن تمسسكم)، والتميميون يقولون: (غضَّ)، و(لا تمنَّ)، و(إن تمسَّكم)[٣].

وبهذا يكون ابن عباس قد وافق لغة قومه الحجازيين في الميل إلى الفك، ودعَّم نسبة هذه الظاهرة إليهم.

٣- في قوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[٤] قرأ الجمهور: (وآلهتك)، وقرأ علي وابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ: (وإلاهتَك)، أي: (عبادتك)[٥].

وقد كان ابن عباس يقول موجهاً ما قرأ به: إن فرعون كان يُعْبد، ولا يَعْبد[٦]. فهو يقول: إن فرعون كان إلهاً، ولم تكن له آلهة يعبدها حتى يُقرأ: (وآلهتك).

(١) سورة البقرة، آية ٢٨٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١: ٣٠١.

(٣) دراسات في فقه اللغة ٨١.

(٤) سورة الأعراف، آية ١٢٧.

(٥) البحر ٤: ٣٦٧.

(٦) المجمل ١: ١٠١ (أله).

والجمهور يرون أن فرعون كان يعبد البقر إلخ. . . . وقد دلتنا هذه القراءة على فهم ابن عباس للقرآن، وربطه لذلك الفهم بما يعرفه من الوقائع التاريخية من أن فرعون كان إلهاً يُتقرب إليه، ولا يَتقرب هو إلى أحد.

٤- في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾[(١)]، قرأ الجمهور: (المعذَّرون)، وقرأ ابن عباس وجماعة معه: (المعْذِرون)، من (أعذر)[(٢)].

وقد اختلف المفسرون في هؤلاء المعتذرين، فقال ابن عباس وجماعة: هم مؤمنون، وأعذارهم صادقة. وقال قتادة وجماعة: هم كافرون، وأعذارهم كذب. وكان ابن عباس يقول: (رحم الله المعذِرين، ولعن المعذَّرين)[(٣)].

وكأن ابن عباس يرى أن المعْذِرين هم الذين لهم عذر؛ أخذاً من قولهم: (قد أعذر من أنذر)، أي: بلغ منتهى العذر. وأما المعذِّرون فهم الذين اعتذروا ولا عذر لهم. وهذا منه ـ رحمه الله ـ قصر للعام على بعض ما يحتمل؛ إذ إن من يعتذر قد يكون له عذر، وقد لا يكون. وفي هذه القراءة كما في سالفتها دلالة على توافق قراءة ابن عباس مع ما كان يراه من المعنى، فهو يعزز رؤيته في التفسير باختياره في القراءة مدركاً لأهمية الانسجام بينهما.

٥- في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[(٤)] قرأ ابن عباس وغيره: (قَطِرٍ آن) على أنها كلمتان، والقَطْر: هو النحاس المذاب.

---

(١) سورة التوبة، آية ٩٠.

(٢) البحر ٥: ٨٣، ٨٤.

(٣) حجة أبي زرعة ٣٢١.

(٤) سورة إبراهيم: آية ٥٠.

وروي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الكلمة الثانية: (آنَ أن يُعَذبوا به)، أي: حان أن يُعذبوا به[١].

وقراءة الجمهور: (قطِران)، وهو ما تُهنأ به الإبل حتى تشفى من الجرب. وبعضهم يفسر (آن) على قراءة ابن عباس ومن معه بأنه هو: الذائب الحار الذي قد تناهى حره[٢]. وهذا هو الأقرب إلى الفهم المباشر، أما قول ابن عباس فقد كان يرمي فيه إلى ما وراء المعنى، أو إلى ما يمكن أن نسميه بـ(معنى المعنى)، إذ إنَّ النحاس لا يُصبُّ عليهم إلا بعد اشتداد حره حتى تتحقق من ذلك حكمة صبه عليه، وهي التعذيب والإهانة. وفي هذا دلالة على زكانة ابن عباس، ودقة إدراكه لأساليب التعبير الراقية.

٣- الاتكاء على أقواله في توجيه القراءات:

إذا كانت الأمثلة التي ذكرناها لتوجيه ابن عباس للقراءات قد دلت على إسهامه في نشأة فن توجيه القراءة، فإن ما سنذكره من أمثلة الآن يدل على إسهاماته في تنمية مقولات الاحتجاج للقراءات وإثراء مادته. ولم يكن لأحد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من التأثير ما يقارب تأثير ابن عباس في هذا الباب، إلا إذا استثنينا ما روي عن ابن مسعود، فإنه استفيد منه بصورة كبيرة. وهذا لأن الاحتجاج للقراءة ظل فترة طويلة من الزمن جزءاً من علم التفسير، قبل أن تكون له كتبه الخاصة، وهو بعد ذلك ما زال مبثوثاً في بطون الموسوعات التفسيرية على ما هو جليٌّ.

وإليك بعض النماذج التي تكشف عن اعتماد موجهي القراءات على علم ابن عباس المأثور عنه:

---

(١) البحر ٥: ٤٤٠.

(٢) السابق....

١- قال الله تعالى في تصوير حال المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[(١)] قرأ عاصم وحمزة والكسائي (يكذِبون) بالتخفيف، وقرأ باقي السبعة: (يُكذِّبون). قال أبو زرعة: وحجة الذين قرؤوا بالتشديد ما روي عن ابن عباس أنه قال: «إنما عوتبوا على التكذيب لا على الكذب»[(٢)].

٢- في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾[(٣)] قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (فلا رفثٌ ولا فسوقٌ) بالرفع والتنوين، و(لا جدالَ) بالفتح. وقد علل لهذا التفريق أبو عبيد بقوله: «وإنما افترقت الحروف عندهم، لأنهم جعلوا قوله: (فلا رفث ولا فسوق) بمعنى النهي، أي: لا يكن فيه ذاك. وتأولوا في قوله: (ولا جدالَ) أنه لا شك في الحج، ولا اختلاف فيه أنه في ذي الحجة».

وقرأ باقي السبعة جميع ذلك بالبناء على الفتح. وقد احتج للجماعة بقوله: وحجتهم قول ابن عباس: (ولا جدالَ في الحج) قال: لا تمار صاحبك حتى تغضبه. فلم يذهب بها ابن عباس ذلك، ولكنه جعله نهياً كالحرفين الأولين[(٤)]. فيكون المعنى على النهي. ومن ثَمَّ فإن البناء على الفتح بصورة مطردة هو الأقرب إلى الفهم المباشر.

٣- في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[(٥)] قرأ ابن

(١) سورة البقرة، آية ١٠.

(٢) حجة أبي زرعة ٨٨.

(٣) سورة البقرة: آية ١٩٧.

(٤) حجة أبي زرعة ٨٨.

(٥) سورة الواقعة، آية ٧٥.

عباس وحمزة والكسائي وغيرهم (بموقع)، وقرأ باقي السبعة وآخرون معهم: (بمواقع) على الجمع. وقد احتجَّ بعضهم لقراءة الجمع بما روي عن ابن عباس من قوله: «مواقع النجوم: نزول القرآن، كان ينزل منجماً شيئاً بعد شيء»[١]. فمواضع نزول القرآن مختلفة، ولذا ناسب هذا التفسير قراءة من قرأ (بمواقع). وقد احتجوا بكلام ابن عباس لقراءة الجمع، مع أنهم رووا عنه أنه كان يقرأ بالإفراد، جرياً على عادتهم في ترجيح القول عند معارضة الفعل.

٤- في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾[٢] قرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي: (كبير الإثم)، وقرأ الجمهور (كبائر) بالجمع. قال الفراء: وعن ابن عباس أن كبير الإثم هو الشرك، فهذا موافق لمن قرأ: (كبير الإثم) بالتوحيد[٣].

هذا ولو أردنا أن نأتي على جميع ما ورد عن ابن عباس في هذا لسودنا صفحات كثيرة، ولكن فيما قدمنا مقنع.

ولعلنا بما سطرناه في أثر ابن عباس في نشأة توجيه القراءة وتنميته، نكون قد بلغنا بالقارىء ما نريده من إثبات الفضل الأكبر لابن عباس في خط المعالم الأولى لهذا الفن.

---

(١) حجة أبي زرعة ٦٩٧، والبحر المحيط ٨: ٢١٣، ٢١٤.

(٢) سورة الشورى، آية ٣٧.

(٣) معاني الفراء ٣: ٢٥.

قضايا لغوية متناثرة

أثِر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أقوال في قضايا لغوية متفرقة من نحو نشأة اللغة ونشأة العربية، والاحتجاج بالشعر وبعض مسائل الاشتقاق، وبما أن الوارد عنه في هذه المسائل لا يشكل موضوعاً متكاملاً، فقد آثرنا وضعه تحت هذا العنوان.

ومع أن ما سنورده هنا عبارة عن شذرات لغوية، إلا أننا آثرنا ذكرها لعل فيها ما يكمل الصورة التي نريد توضيحها للقارئ عن التفكير اللغوي عند ابن عباس.

١ – نشأة اللغة الإنسانية الأولى:

شُغل كثير من الفلاسفة وعلماء اللغات بمحاولات الكشف عن الكيفية التي بدأت عليها اللغة الإنسانية الأولى، والعوامل التي أثرت فيها، وقد تمحورت آراء القدماء والمحدَثين حول أربع نظريات مشهورة في هذا الشأن، ومن هذه النظريات نظرية التوقيف أو الإلهام، وهي نظرية قديمة نسبوا القول بها إلى الفيلسوف اليوناني (هيراكليت) المتوفى سنة ٤٨٠ق.م[١]، ومن هنا فإن ابن عباس حين أدلى بدلوه في هذا الموضوع فإنه لم يبدأ من فراغ.

وقد نقل ابن فارس عن ابن عباس أنه قال: «علَّمه الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها»[٢].

(١) انظر في تلك النظريات الخصائص ١: ٤٠، والمزهر ١: ٨، وعلم اللغة: ٩٧.
(٢) الصاحبي ٦.

وذكر سعد مولى الحسن بن علي قال: كنت جالساً عند ابن عباس، فذكروا اسم الآنية والسوط، قال ابن عباس: «وعلم آدمَ الأسماء كلَّها»(١). فكأن هذه الرواية تشعر بأن ابن عباس إنما اعتمد فيما ذهب إليه على ما جاء في هذه الآية.

وقد فهم ابن فارس من كلام ابن عباس هذا أن لغة العرب توقيف، وأن الله ـ تعالى ـ علَّم آدم من العربية مما احتاج إلى علمه في زمانه وانتشر. ثم علَّم بعد آدم ـ عليه السلام ـ من عرب الأنبياء ما شاء أن يعلمه، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فآتاه الله ـ جل وعز ـ من ذلك ما لم يؤت أحداً قبله(٢).

وعندي أن ابن عباس لم يرد ما فهمه ابن فارس من أن الله علم آدم لفظ دابَّة وأرض... إلخ، وإنما أراد من وراء هذا التمثيل لما علمه إياه والتدليل على عمومه. وإلا فالباحثون لا يشكون اليوم في تشعب لغة آدم ـ عليه السلام ـ إلى لهجات، ثم تحولت تلك اللهجات على ألسنة ذريته إلى لغات وهكذا...

وقد بالغ بعض علمائنا حين قال: علَّم الله آدم كل شيء حتى نحو سيبويه!! وهذا من القول بغير علم، وتكلف لما لم يكلف الله ـ تعالى ـ به.

٢- أول من تكلم العربية:

تظاهرت الرواية عن ابن عباس في بيان أول من نطق بالعربية، فقد قال

---

(١) تفسير القرطبي ٢: ٢٨٢، وفتح القدير ١: ٦٥.

(٢) الصاحبي: ٨.

الجاحظ: روى قيس بن الربيع عن أشياخه عن ابن عباس: أن الله ـ تعالى ـ ألهم إسماعيل ـ عليه السلام ـ العربية إلهاماً[١].

وقال السيوطي: قد روي عن ابن عباس: أن أول من تكلم العربية المحضة إسماعيل. قال: وأراد به عربية قريش التي نزل بها القرآن، وأما عربية قحطان وحمير فكانت قبل إسماعيل عليه السلام[٢].

لكن بعض المصادر ترفع هذا القول إلى النبي ﷺ، فقد ذكر السهيلي أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أول من كتب بالعربية إسماعيل». قال أبو عمر بن عبد البر: وهذه الرواية أصح من رواية من روى أن أول من تكلم بالعربية إسماعيل[٣]. فرجح ابن عبد البر الرواية التي تنسب لإسماعيل ابتداء الكتابة على ابتداء التكلم.

وروى ابن كثير بإسناده عن محمد بن علي بن الحسين عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال: «أول من فتق لسانه بالعربية البيِّنة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة»[٤]. فهذا حسب الظاهر هو الدليل الذي استند إليه ابن عباس فيما ذهب إليه. وإذا كان النص لا يشير إلى طريقة تعلم إسماعيل العربية، فإن المتوقع أن تكون لغته الأولى التي تعلمها كانت خليطاً من لغتي أبويه، وقد كان إبراهيم ﷺ يتكلم الكلدانية ولغة أمه كانت القبطية. ثم بعد أن نزل مع أمه هاجر في جبال (فاران) قرب مكة تعلم العربية من العرب العاربة الذين نزلا عندهم من جرهم والعماليق وأهل اليمن[٥].

---

(١) البيان والتبيين ٣: ٢٤٦.

(٢) المزهر ١: ٢٧.

(٣) الروض الأنف ١: ١٣١.

(٤) البداية والنهاية ١: ١٨٠.

(٥) انظر السابق...

وهذا هو التفسير المنطقي، لا ما ذكره الجاحظ حين قال: «ولا بدَّ من أن يكون فيه ذكر شأن إسماعيل وانقلاب لغته وبيانه بعد أربع عشرة سنة، وكيف نسي لغته التي ربِّي فيها، وجرى على أعراقها، وكيف لفظ بجميع حاجاته بالعربية عن غير تلقين ولا ترتيب، وحتى لم تدخله عجمة ولا لكنة ولا حبسة، ولا تعلق بلسانه شيء من تلك العادة»(١).

إذ لم يرد إلينا في أثر أو خبر ما يثبت أن إسماعيل تعلم العربية عن طريق المعجزة، حتى نعدل عما عرفناه من اكتساب اللغات على سبيل التدرج.
وكلام ابن عباس بعد هذا وذاك يصور لنا الجوَّ الثقافي الذي كان سائداً في عصره، كما يصور الروح العلمية الوثابة التي غرسها الإسلام في نفوس أبنائه.

٣- أول من كتب بالخط العربي:

مشكلة الخط العربي من المشكلات الكبرى التي ظلت فترة طويلة من الزمن مسرحاً للآراء والأقوال المتدافعة، فهناك من الروايات عن القدماء في هذه السبيل الكثير، فمنها ما يذكر أن الخط العربي توقيف من الله ـ عز وجل ـ علمه آدم ثم أصابه إسماعيل بعد الطوفان، ومنها ما يذكر أنه كان اختراعاً، وليس إلهاماً، وقد أخذته العرب عن الحيرة، والحيرة عن الأنبار، وأخذه الأنبار عن اليمن... إلخ(٢).

وقد أدلى ابن عباس بدلوه في هذا الموضوع، حيث ذكر ابن فارس عن ابن عباس أنه كان يقول: «أول من وضع الكتاب العربي ـ أي الخط ـ إسماعيل ـ عليه السلام ـ وضعه على لفظه ومنطقه»(٣).

---

(١) البيان والتبيين ١: ٣٥٩، ٣٦٠.
(٢) انظر: الصاحبي ٦ـ٨، والمزهر ٢: ٣٤١، ومصادر الشعر الجاهلي ٢٤.
(٣) الصاحبي ١٠. قال السيوطي في المزهر ٢: ٣٤٢: هذا الأثر أخرجه ابن أشته والحاكم في=

وذكر السيوطي أن ابن أشته أخرج في المصاحف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: «أول كتاب أنزله الله من السماء أبو جاد»[١].

وذكر ابن النديم عن ابن عباس أنه قال: «أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان، وهي قبيلة سكنوا الأنبار، وإنهم اجتمعوا، فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة. وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، ويقال: مروة وجدلة. فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصَّل، وأما عامر فوضع الإعجام»[٢].

وهذه الروايات يدفع بعضها بعضاً، وإن كانت الأخيرة ـ في الجملة ـ أقرب إلى الصحة، حيث يعضدها كثير من الروايات عن غير ابن عباس، وكلها يشير إلى تلقي العرب خطَّهم عن أهل الأنبار[٣]. وهذه الرواية الأخيرة ذات قيمة خاصة عند من يرى أن الخط العربي كان معجماً قبل نزول القرآن الكريم الذي كتب بخط مغفَل من الشكل والإعجام.

والذي يتجه إليه كثير من الباحثين اليوم أن النبط[٤] استخدموا الآرامية والخط الآرامي في كتبهم لقرون عدة، وبمرور الأيام طور النبط الخط الآرامي، فابتعد عن أصله، ثم فنيت الكتابة النبطية في آخر أدوارها لتظهر في كتابة أخرى هي الكتابة العربية[٥].

= المستدرك من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(١) المزهر ٢: ٣٤٣.

(٢) الفهرست ٦، ٧.

(٣) السابق...

(٤) النبط: قبائل عربية متجولة تحضرت، وأسست في القرنين الأول والثاني قبل الميلاد مملكة شمال الجزيرة العربية، واستمرت حتى سنة (١٠٦م).

(٥) رسم المصحف (دراسة لغوية تاريخية) ٤٥، ٤٦.

وبهذا فإن كلام ابن عباس ـ في روايته الأخيرة ـ لا يكون بعيداً كثيراً عما وصل إليه البحث العلمي اليوم، إذ إن الصلة قائمة بين حواضر العراق العربية وبين مملكة الأنباط (بترا) على ما هو ثابت تاريخياً.

٤ - الاشتقاق:

لعل من أهم ميزات اللغة العربية القدرة الكامنة في تركيبها العام على التوالد، مما جعل بحوث الاشتقاق من أهم موضوعات (فقه اللغة). ولا أريد هنا أن أعرض للاشتقاق الأصغر والأكبر، ولا إلى ضوابط عمليات توليد الألفاظ؛ إذ ذاك معلوم مهضوم عند شداة العربية، ولكني أريد أن أعرض إلى ما ورد عن ابن عباس في هذا، وهو ليس بالكثير، ولكن أليس هكذا تكون البدايات دائماً ؟

وهذه أمثلة ثلاثة تشخص لنا فكره الاشتقاقي:

أ- قال السيوطي: دخل ابن عباس على معاوية وعنده عمرو بن العاص، فقال عمرو: إن قريشاً تزعم أنك أعلمها، فلم سميت قريش قريشاً؟ قال: بأمر بيِّن. قال: فسِّره لنا. ففسَّره. قال: هل قال أحد فيه شعراً؟ قال: نعم. قال: سميت قريش بدابَّة في البحر، وقد قال المشمرج ابن عمرو الحميري:

وقريش هي التي تسكن البحـ ... ـر بها سميتْ قريش قريشا
تأكل الغثَّ والسمينَ ولا تتر ... ك فيك لذي الجناحين ريشا
هكذا في البلاد حيُّ قريش ... يأكلون البلاد أكلاً كميشا
ولهم آخرَ الزمان نبيٌّ ... يُكثر القتلَ فيهم والخموشا
تملأ الأرضَ خيلُه ورجالٌ ... يحشرون المطيَّ حشراً كشيشا[1]

---

(١) المزهر ١: ٣٤٤، ٣٤٥.

وأخرج ابن عساكر في «تاريخه» أن معاوية قال لابن عباس: لم سميت قريش قريشاً؟ قال: بدابة تكون في البحر من أعظم دوابه، يقال لها القرش، لا تمرُّ بشيء من الغث والسمين إلا أكلته. قال: فأنشدني في ذلك شيئاً. فأنشده شعر الحميري[(١)].

وإذا صح أن هذا هو السبب لهذه التسمية، فإنه يعني أن هذه التسمية جاءت متأخرة بعد أن صار لقريش صولة وجولة، كما يعني أنه كان هناك لهذه القبيلة اسم آخر قبل ذلك.

ب- قال أبو جعفر النحاس: «روي عن ابن عباس أنه قال: آدم خُلق من أديم الأرض. قال أبو جعفر: أديم الأرض وجهها، فسمي آدم لأنه خلق من وجه الأرض. لكن ثعلباً زعم أن من قال ذلك فقد أخطأ في العربية، لأنه يجب أن يصرفه لأنه فاعل مثل طابق. قال: ولكنه مشتق من شيئين: أحدهما أن يكون مشتقاً من قولهم: أَدَمْتُ فلاناً بنفس، أي: خلطته، فقيل آدم لأنه من أخلاط. والقول الثاني عند ثعلب: أن آدم أفعل من الأَدْمَة في اللون. قال أبو جعفر: الذي أنكره أحمد بن يحيى هو قول أكثر النحويين»[(٢)]. وبهذا يتبين صحة ما ذهب إليه ابن عباس ومتابعة علماء العربية له.

ج- جرى خلاف بين علماء العربية حول اشتقاق كلمة (إنسان)، فذهب البصريون إلى أنه مأخوذ من (الإنس)، وسمي الإنس إنساً لظهورهم، كما سمي الجنُّ جناً لاجتنانهم. وقالوا: يجوز أن يكون سمي الإنس إنساً لأن

---

(١) السابق، والقرطبي ٢٠: ٢٠٣. وهناك أسباب أخرى لهذه التسمية. انظر اللسان ٦: ٣٣٥ (قرش).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١: ٣٢٢، ٣٢٣.

هذا الجنس يستأنس به، ويوجد فيه من الأنس وعدم الاستيحاش ما لا يوجد في غيره من سائر الحيوان.

وذهب أهل الكوفة إلى أن (إنسان) أصله: (إنسيان) على (إفْعِلان) من النسيان، إلا أنه لما كثر في كلامهم، وجرى على ألسنتهم، حذفوا منه الياء ـ التي هي اللام ـ لكثرته في استعمالهم(١).

وقد ذكر ابن قتيبة أنه روي عن ابن عباس أنه قال: «إنما سمي إنساناً لأنه عُهد إليه فنسي»(٢).

قال الأزهري مؤيداً مذهب الكوفيين ومستشهداً بكلام ابن عباس: إذا كان الإنسان في الأصل (إنسيان) فهو (إفعلان) من النسيان، وقول ابن عباس حجة قوية له، وهو مثل: (ليل إضحيان) من ضَحِي يَضْحَى، وقد حذفت الياء فقيل: (إنسان)(٣).

فهذا كله دليل على الحسِّ اللغوي المرهف الذي مُتِّع به حبر القرآن.

٥- اهتمامه برواية الشعر وروايته له:

كان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرجعاً في علوم عدة، وكان من جملة اهتماماته الكبرى العناية برواية الشعر وحفظه، كما كان من المتعالم الذائع بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أن ابن عباس مُتِّع بملكة نقدية تمكنه من المفاضلة بين الشعراء، وتمييز جيد الشعر من رديئه. ويضاف إلى هذا سبقه إلى الاستدلال بالشعر على مسائل العربية المختلفة. وإليك طرفاً من كل ذلك:

---

(١) الإنصاف ٢: ٤٣٣.

(٢) أدب الكاتب ٦١٣، ٦١٤.

(٣) اللسان ٦: ١١ (أنس).

أ- الاهتمام برواية الشعر:

كان ابن عباس شديد الاهتمام بحفظ الشعر، لأن الشعر كان سجلّ أيام العرب وديوان أخبارهم، فما من حادثة جليلة إلا وخلدت فيه، بالإضافة إلى أنه كان يمثل بالنسبة لابن عباس شيئاً هاماً من زاوية الاستفادة منه في تفسير غريب القرآن على نحو ما وضحناه. ويروي لنا المبرد في هذا السياق: أن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس يوماً، فجعل يسأله حتى أملَّه، فجعل ابن عباس يُظهر الضجر، وطلع عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة على ابن عباس ـ وهو يومئذ غلام ـ فسلَّم، وجلس، فقال له ابن عباس: ألا تنشدنا شيئاً من شِعْرك؟ فأنشده:

أمِنْ آل نُعمٍ أنت غادٍ فمبكرُ غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجرُ

حتى أتمها وهي ثمانون بيتاً. فقال له ابن الأزرق: لله أنت يا ابن عباس! أنضرب إليك أكباد الإبل، نسألك عن الدِّين فتعرض، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه؟! فقال: تالله ما سمعت سفهاً. فقال ابن الأزرق: أما أنشدك:

رأت رجلاً أمَّا إذا الشمسُ عارضتْ فيخزى وأما بالعشيِّ فيخسرُ

فقال ابن عباس: ما هكذا قال، إنما قال: «فيضحى وأما بالعشي فيخصرُ» قال: أوتحفظ الذي قال؟ قال: والله ما سمعتها إلا ساعتي هذه، ولو شئت أن أردَّها لرددتها! قال: فارددها. فأنشده إياها كلَّها[1].

لقد استهجن ابن الأزرق تشاغل ابن عباس بالشعر عمن وفد إليه لتعلم أمور الدين من فقه وتفسير، ولكن ابن عباس كشف له عن

---

(١) الكامل للمبرد ٣: ١١٥٢.

اهتمامه بالشعر وتفاعله معه، وآية ذلك أنه حفظ القصيدة على طولها من أول سماعه لها.

وقال المبرد أيضاً: وروى الزبيريون أن نافعاً قال له: ما رأيت أروى منك قط. فقال له ابن عباس: ما رأيت أروى من عمر، ولا أعلم من علي(١).

إن كثرة ما يحفظه ابن عباس من شعر ونثر انتزعت إعجاب ابن الأزرق، فأفاده ابن عباس بأن عمر أروى منه. وهذا مع ذاك يشير إلى ابتداء حفظ الشعر من أجل استخدامه في إثراء فنون العربية التي كان للشعر فيها مكانة، وأية مكانة!!

ب - لم يكن ابن عباس راوية للشعر فحسب، بل كان يملك إلى جانب ذلك حساً نقدياً يخوله المفاضلة بين الشعراء، ويمكنه من الحكم على جودة ما يسمع، وما يروى من الشعر. ولم يكن ابن عباس متفرداً بهذا، فقد كانت المجالس تعجُّ بهذا اللون من المعرفة، وفي بعض الأحيان كانت هناك بعض القبائل التي تفضل شعر شاعر بعينه لملابسات وأسباب متعددة.

وقد ذاع بين الصحابة الكرام تمكن ابن عباس من نقد الشعر وطول باعه في تمييز جيد الشعر من رديئه، على نحو ما صوره لنا ابن الأثير في النص التالي حيث يقول: «قال ابن عباس: بينما عمر بن الخطاب وأصحابه يتذاكرون الشعر فقال بعضهم: فلان أشعر، وقال بعضهم: بل فلان أشعر، قال: فأقبلت، فقال عمر: قد جاءكم أعلم الناس بها، من أشعر الشعراء؟ قال: قلت: زهير بن أبي سلمى. فقال: هلمَّ من شعره ما تستدلُّ به على ما ذكرت. فقلت: امتدح قوماً من غطفان، فقال:

---

(١) السابق ٣: ١١٥٤.

لو كان يعقد فوق الشمس من كرم   قوم بأوَّلهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم   طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
إنسٌ إذا أمنوا جنٌّ إذا فزعوا   مرزَّؤون بها ليل إذا حشدوا
محسَّدون على ما كان من نعم   لا ينزع الله منهم ما له حُسدوا

فقال عمر: أحسن والله! وما أعلم أحداً أولى بهذا الشعر من هذا الحيِّ من بني هاشم، لفضل رسول الله ﷺ وقرابتهم منه...»[(١)].

وفي نص آخر أن عمر قال لابن عباس: «أنشدني لأشعر شعرائكم. قلت: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير. قلت: وكان كذلك؟ قال: كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع حُوشِيَّه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه»[(٢)].

وفي هذا النص نرى أن عمر رضي الله عنه هو الذي عيَّن أشعر الشعراء، ولكنه من جهة أخرى دلَّ على أن ابن عباس كان معروفاً بالعناية بحفظ الشعر وإنشاده.

جـ - افتتاح استخدام الشعر في الاستشهاد على مسائل العربية:

هيأ اهتمام ابن عباس بحفظ الشعر وروايته وإنشاده الجو العام للاستفادة منه في شرح الغريب وتنهيج اللغة، ومارس هو ذلك على نحو ما رأينا في أجوبته على نافع بن الأزرق، بل صار من الذائع عند اللغويين القدامى أن ابن عباس لا يشرح شيئاً من الغريب إلا بإنشاد شيء من الشعر عليه، فقد قال المبرد حكاية عن أبي عبيدة: «ومما سأله ـ أي نافع ـ عنه: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ

(١) الكامل لابن الأثير ٣: ٣٣، ٣٤.
(٢) المزهر ٢: ٤٨٢.

﴿ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(١)]. فقال ابن عباس: تأويله: هذا القرآن هكذا جاء. قال أبو عبيدة: ولا أحفظ عليه شاهداً عن ابن عباس، وأنا أحسبه لم يقبله إلا بشاهد»[(٢)].

وتعويل ابن عباس على الشعر بصورة أساسية في شرح الغريب، كان ينبع من نظرتهم إلى الشعر والشعراء نظرة تقديس وتبجيل، ومن كون الشعر أسهل حفظاً من النثر، وأكثر علوقاً بالذاكرة، هذا بالإضافة إلى قلة المحفوظ لديهم من النثر إذا ما قورن بالشعر. ويبدو أنه جدَّ موقف مغاير لهذا في القرن الثالث الهجري حين رأى مجموعة من الفقهاء الورعين عدم جواز الاستشهاد بالشعر على القرآن، كما صوره ابن الأنباري حين قال: وإنما دعانا إلى ذكر هذا أن جماعة لا علم لهم بحديث رسول الله ﷺ، ولا معرفة لهم بلغة العرب، أنكروا على النحويين احتجاجهم على القرآن بالشعر، وقالوا: إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن. وقالوا أيضاً: كيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[(٣)]، وقال النبي ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يَرِيَهُ، خير من أن يمتلئ شعراً»؟![(٤)]

ثم أخذ ابن الأنباري يرد عليهم قولهم ذاك.

ولم يكتب لهذا التيار الاستمرار، لأنه كان بعيداً عن القصد والجادة.

وصار الاستشهاد بالشعر بعد ذلك عاماً لدى كل المدارس النحوية،

---

(١) سورة البقرة، الآيتين ١ـ٢.

(٢) الكامل ٣: ١١٤٩، ١١٥٠.

(٣) سورة الشعراء، آية ٢٢٤.

(٤) الوقف والابتداء ١: ٩٩، ١٠٠.

وعدد الشواهد الشعرية في كتب النحو أكبر من عدد الآيات القرآنية، وإن كنا نرى أن النحاة لم يوفقوا في ذلك، حيث كان عليهم الاعتماد على القرآن الكريم وقراءاته الصحيحة والشواهد النثرية الأخرى؛ حيث إن الشعر موضع للضرورات، مما يجعل تمثيله للأدبية المشتركة في مقام التراكيب النحوية غير دقيق.

والذي يهمنا من هذا وذاك أن ابن عباس قد شق الطريق أمام اللغويين في مقام الاستفادة من الشعر، في بناء مناهج العربية بصورة عامة، وفي مجال الشرح المعجمي بصورة خاصة.

وبعد؛ فإنني أعتقد أنني قد أزلت كل لبس أو شك حول الأثر البالغ الذي كان لابن عباس في وضع اللبنات الأولى في بناء العربية بصورة عامة، ونحن هنا لم نقصد إلا بيان هذه الحقيقة، بُغْية إدراك معالم النشأة الأولى للدراسات العربية.

وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

جريدة المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي القاهرة ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط ثالثة ١٩٥١م.

٢- أثر التطور في التفسير في العصر العباسي تأليف د. مساعد مسلم عبد الله بيروت مؤسسة الرسالة ط أولى ١٩٨٤م.

٣- أخبار النحويين البصريين للحسن بن محمد السيرافي تحقيق د. طه الزيني ود. عبد المنعم خفاجي القاهرة ـ مكتبة مصطفى الحلبي ط أولى ١٣٧٤هـ.

٤- أدب الكاتب لابن قتيبة تحقيق محمد الدالي بيروت مؤسسة الرسالة ط أولى ١٤٠٢هـ.

٥- أسباب النزول للواحدي تحقيق السيد أحمد صقر السعودية دار القبلة ط ثانية ١٤٠٤هـ.

٦- الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر مطبوع على هامش الإصابة.

٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير طبعة قديمة بالحجر.

٨- إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين تأليف عبد الباقي اليماني تحقيق د. عبد المجيد دياب الرياض ط أولى ١٤٠٦هـ.

٩- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني بيروت دار الكتاب العربي.

١٠- أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها بحث مطبوع على الآلة الكاتبة للمؤلف.

١١- إعجاز القرآن للباقلاني مطبوع على هامش الإتقان للسيوطي.

١٢- إعراب القرآن للنحاس تحقيق د. زهير زاهد بغداد مطبعة العاني ط أولى.

١٣- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني القاهرة دار الكتب سنة ١٩٣٨م.

١٤- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ.

١٥- أنساب الأشراف للبلاذري تحقيق د. عبد العزيز الدوري بيروت عام ١٩٧٨م.

١٦- الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات بن الأنباري تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ـ مطبعة السعادة ط ثالثة ١٩٥٥م.

١٧- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة.

١٨- البحر المحيط لأبي حيان بيروت دار الفكر ط ثانية ١٩٧٨م.

١٩- البداية والنهاية لابن كثير تحقيق د. أحمد أبو ملحم وزملائه بيروت دار الكتب العلمية.

٢٠- البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة مطبعة عيسى البابي الحلبي ط الثانية ١٩٧٢م.

٢١- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ط أولى ١٩٦٤م.

٢٢- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق حسن السندوبي القاهرة مطبعة الإستقامة ١٣٦٦هـ.

٢٣- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ترجمة د. عبد الحليم النجار وزملائه القاهرة دار المعارف.

٢٤ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي بيروت دار الكتاب العربي.

٢٥- تفسير ابن كثير القاهرة مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

٢٦- تفسير الطبري القاهرة المطبعة الأميرية ط أولى ١٣٢٩هـ.

٢٧- تفسير القرطبي بيروت دار الكتاب العربي ط ثانية ١٣٧٢هـ.

٢٨- التفسير والمفسرون د. محمد حسين الذهبي القاهرة دار الكتب الحديثة ط ثانية ١٩٧٦م.

٢٩- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس جمع الفيروزأبادي القاهرة المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦٠م.

٣٠- تهذيب الأسماء واللغات للنووي بيروت دار الكتب العلمية.

٣١- التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني عني بتصحيحه أوتوبرتزل بغداد ـ مكتبة المثنى.

٣٢- جمع الفوائد لمحمد بن محمد بن سليمان نشره عبد الله هاشم اليماني المدني ١٩٦١م.

٣٣- حبر الأمة عبد الله بن عباس د. عبد الله السلقيني القاهرة دار السلام ط أولى ١٤٠٧هـ.

٣٤- الحجة في القراءات السبع لابن خالويه تحقيق د. عبد العال مكرم بيروت دار الشروق ط ثانية ١٩٧٧م.

٣٥- حجة القراءات لأبي زرعة ابن زنجلة تحقيق سعيد الأفغاني بيروت مؤسسة الرسالة ط ثانية ١٣٩٩هـ.

٣٦- الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاني دمشق ـ دار المأمون للتراث ط أولى ١٤٠٤هـ.

٣٧- الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي د. عبد العال مكرم الكويت مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع ١٩٧٧م.

٣٨- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني بيروت دار الكتاب العربي ط خامسة ١٤٠٧هـ.

٣٩- الخصائص لأبي الفتح بن جني تحقيق محمد علي النجار بيروت دار الهدى ط ثانية.

٤٠- دراسات في فقه اللغة د. صبحي الصالح بيروت دار العلم للملايين ط خامسة ١٩٧٣م.

٤١- دراسات لأسلوب القرآن الكريم تأليف محمد عبد الخالق عضيمة القاهرة دار السعادة ط أولى ١٣٩٢هـ.

٤٢- الدر المصون للسمين الحلبي تحقيق د. أحمد الخراط دمشق دار القلم ط أولى ١٤٠٧هـ.

٤٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي بيروت دار المعرفة.

٤٤- الدلالة اللغوية عند العرب د. عبد الكريم مجاهد عمان دار الضياء للنشر والتوزيع.

٤٥- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري بيروت مؤسسة علوم القرآن ط رابعة ١٤٠٨هـ.

٤٦- رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية تأليف غانم الحمد بغداد ط أولى ١٤٠٢هـ.

٤٧- الروض الأنف للسهيلي بيروت دار المعرفة.

٤٨- السبعة في القراءات لابن مجاهد تحقيق د. شوقي ضيف القاهرة دار المعارف ط ثانية ١٩٧٢م.

٤٩- سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط بيروت مؤسسة الرسالة ط أولى ١٤٠١هـ.

٥٠- شواهد القرآن لأبي تراب الظاهري جدة منشورات نادي جدة الأدبي ط أولى ١٤٠٤هـ.

٥١- الصاحبي لابن فارس اللغوي تحقيق السيد أحمد صقر القاهرة طبع عيسى الحلبي ١٩٧٧م.

٥٢- الصحاح للجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ط ثانية ١٣٩٩هـ.

٥٣- صحيح البخاري بيروت عالم الكتب مصورة عن الطبعة المنيرية.

٥٤- صحيح مسلم بشرح النووي بيروت دار الفكر ط ثالثة ١٩٧٨م.

٥٥- ضحى الإسلام لأحمد أمين مكتبة نهضة مصر ط تاسعة ١٩٧٩م.

٥٦- طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي تحقيق محمود شاكر طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

٥٧- طبقات القراء لابن الجزري تحقيق ج برجستراسر القاهرة مكتبة الخانجي ١٣٥٢هـ.

٥٨- الطبقات الكبرى لابن سعد بيروت دار صادر.

٥٩- طبقات المفسرين للداوودي بيروت دار الكتب العلمية.

٦٠- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة دار المعارف ١٩٧٣م.

٦١- عبد الله بن عباس د. مصطفى الخن دمشق ـ دار القلم ط ثالثة ١٤٠٨هـ.

٦٢- العبر للذهبي تحقيق محمد السعيد زغلول بيروت دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٠٥هـ.

٦٣- علم اللغة د. علي عبد الواحد وافي دار نهضة مصر طبعة سابعة.

٦٤- غريب القرآن وتفسيره لعبد الله بن يحيى اليزيدي تحقيق محمد سليم الحاج بيروت عالم الكتب ط أولى ١٩٨٥م.

٦٥- فتح الباري لابن حجر العسقلاني القاهرة المطبعة السلفية.

٦٦- فتح القدير للشوكاني بيروت دار المعرفة.

٦٧- فصول في فقه العربية د. رمضان عبد التواب القاهرة مكتبة الخانجي ط ثانية.

٦٨- الفهرست لابن النديم بيروت دار المعرفة ١٣٩٨هـ.

٦٩- في اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ط رابعة ١٩٧٣م.

٧٠- القواعد والإشارات في أصول القراءات لأحمد بن عمر الحموي تحقيق د. عبدالكريم بكار دمشق دار القلم ط أولى ١٤٠٦هـ.

٧١- الكامل في التاريخ لابن الأثير بيروت دار الكتاب العربي ط ثانية ١٤٠٠هـ.

٧٢- الكامل للمبرد تحقيق محمد الدالي بيروت مؤسسة الرسالة ط أولى ١٤٠٦هـ.

٧٣- الكشاف للزمخشري الرياض ـ مكتبة المعارف.

٧٤- الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب تحقيق د. محيي الدين رمضان دمشق ـ مجمع اللغة العربية ١٣٩٤هـ.

٧٥- لباب التأويل في معاني التنزيل لعلي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن بيروت دار المعرفة.

٧٦- لسان العرب لابن منظور بيروت دار صادر.

٧٧- لطائف الإشارات لفنون القراءات تأليف أحمد بن محمد القسطلاني تحقيق عامر عثمان ود. عبد الصبور شاهين القاهرة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٧٨- لغة القرآن الكريم د. عبد الجليل عبد الرحيم عمان مكتبة الرسالة الحديثة ط أولى ١٤٠١هـ.

٧٩- اللغات في القرآن المروي عن ابن عباس تحقيق د. صلاح الدين المنجد بيروت دار الكتاب الجديد ط ثانية ١٩٧٢م.

٨٠- اللغات في القرآن مطبوع على هامش تفسير الجلالين القاهرة ـ دار إحياء العلوم العربية.

٨١- مجاز القرآن لأبي عبيدة تحقيق د. فؤاد سزكين القاهرة ـ مكتبة الخانجي.

٨٢- مجمل اللغة لأحمد بن فارس اللغوي تحقيق د. زهير سلطان بيروت مؤسسة الرسالة ط أولى ١٤٠٤هـ.

٨٣- المحتسب في تبيين شواذ القراءات لابن جني تحقيق علي النجدي ناصف وزميليه القاهرة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٨٦هـ.

٨٤- مختصر تفسير الطبري اختصره محمد علي الصابوني ود. صالح رضا بيروت دار القرآن الكريم ط أولى ١٤٠٣هـ.

٨٥- المدارس النحوية د. شوقي ضيف القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٨م.

٨٦- مراتب النحويين تأليف عبد الواحد بن علي اللغوي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ـ دار نهضة مصر.

٨٧- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة المقدسي تحقيق طيار آلتي قولاج بيروت دار صادر ١٩٧٥م.

٨٨- المزهر في علوم اللغة للسيوطي تحقيق محمد أحمد جاد المولى وزميليه القاهرة ـ دار إحياء الكتب العربية.

٨٩- مسند الإمام أحمد بيروت المكتب الإسلامي ط ثانية ١٣٩٨هـ.

٩٠- مشاهير علماء الأمصار تأليف محمد بن حبان البستي تصحيح م فلايشهر القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٩م.

٩١- مصادر الشعر الجاهلي تأليف د. ناصر الدين الأسد القاهرة دار المعارف ط رابعة ١٩٦٩م.

٩٢- المعارف لابن قتيبة تحقيق د. ثروت عكاشة القاهرة دار المعارف ط ثانية ١٩٦٩م.

٩٣- معاني القرآن للزجاج تحقيق د. عبد الجليل شلبي بيروت عالم الكتب ط أولى ١٩٨٨م.

٩٤- معاني القرآن للفراء تحقيق محمد علي النجار وزملائه القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٦م.

٩٥- المعجم العربي د. حسين نصار القاهرة ـ مكتبة مصر.

٩٦- معجم غريب القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي لبنان دار المعرفة ط ثانية .

٩٧- المعرفة والتاريخ تأليف يعقوب بن سفيان البسوي تحقيق د. أكرم العمري بغداد مطبعة الإرشاد ١٣٩٤هـ.

٩٨- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله بيروت دار الفكر ط خامسة ١٩٧٩م.

٩٩- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني بيروت دار المعرفة.

١٠٠- المفصل في تاريخ النحو تأليف د. محمد خير حلواني بيروت مؤسسة الرسالة ط أولى ١٣٩٩هـ.

١٠١- المكتفى في الوقف والابتداء لأبي عمرو الداني تحقيق د. يوسف المرعشلي بيروت مؤسسة الرسالة ط أولى ١٤٠٤هـ.

١٠٢- الموافقات للشاطبي بيروت دار المعرفة ط ثانية ١٩٧٥م.

١٠٣- نزهة الألباء لابن الأنباري تحقيق د. إبراهيم السامرائي بغداد مكتبة الأندلس ط ثانية ١٩٧٠م.

١٠٤- النشر في القراءات العشر لابن الجزري تحقيق محمد أحمد دهمان - دمشق مطبعة التوفيق ١٣٤٥هـ.

١٠٥- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير تحقيق د. محمود الطناحي بيروت دار إحياء التراث العربي.

١٠٦- النهر الماد من البحر لأبي حيان مطبوع على هامش البحر المحيط.

١٠٧- همع الهوامع للسيوطي بيروت دار المعرفة.

١٠٨- الوقف والابتداء لأبي بكر بن الأنباري تحقيق د. محيي الدين رمضان دمشق ١٣٩١هـ.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
حياة ابن عباس	٧
اسمه ونسبه	٧
ولادته	٨
نشأته	٨
الرجل المبارك	٩
أولاده	١٠
خصائصه النفسية والعقلية	١٠
أدبه الجمّ	١١
جوده وكرمه	١٢
عبادته	١٣
حبه الخير للناس	١٤
حكمته ورأيه الجزل	١٤
فصاحة لسانه	١٧
نظره البعيد	١٨

الثناء على علمه ٢٠
صفته الجسمية ٢١
وفاته ٢٣
الرواية عن ابن عباس ٢٥
ابن عباس والملاحظات اللغوية الأولى ٢٩
وضع العربية في صدر الإسلام ٣٠
من هو واضع النحو الأول؟ ٣٢
موقف الباحثين المعاصرين ٣٣
صلة أبي الأسود بابن عباس ٣٦
ما قبل ابن عباس ٣٩
العربية في عهد عمر رضي الله عنه ٤١
في عهد علي رضي الله عنه ٤٣
آراء ابن عباس النحوية ٤٥
الأدوات ٤٥
ضروب مختلفة من الملاحظات النحوية ٥١
حذف المضاف ٥١
حذف المعطوف ٥٢
تأويل يمنع اتحاد الشرط والجزاء ٥٢
حذف ناصب المفعول به ٥٣

حذف الحال ٥٣
التقديم والتأخير ٥٣
زيادة (كان) ٥٥
زيادة (لا) ٥٦
ابن عباس وتأسيس علم الدلالة ٥٧
التفسير المعجمي المحدد ٦١
مسائل نافع الأزرق ٦٢
نماذج من تفسيره المعجمي ٦٣
التفسير السياقي ٦٧
شرحه لبعض العبارات ٧١
رأيه في بعض المشكلات والمسائل الموهمة ٧٤
ابن عباس واللهجات العربية ٧٩
الرواية عن ابن عباس في اللهجات الواردة في القرآن الكريم ٨٠
الفوارق بين نصوص لهجية منسوبة لابن عباس ٨٢
روايات لهجية متناثرة عن ابن عباس ٩٢
ابن عباس وتوجيه القراءات القرآنية ٩٧
نشأة توجيه القراءات ٩٨
توجيهه المباشر لبعض القراءات ٩٩
نماذج ذات دلالة خاصة من قراءته ١٠٦

الاتكاء على أقواله في توجيه القراءات ١٠٩
قضايا لغوية متناثرة ١١٣
نشأة اللغة الإنسانية الأولى ١١٣
أول من تكلم بالعربية ١١٤
أول من كتب بالخط العربي ١١٦
الاشتقاق ١١٨
اهتمامه برواية الشعر وروايته له ١٢٠
ملكته النقدية ١٢٢
جريدة المراجع ١٢٧
فهرس محتويات الكتاب ١٣٧